بسم الله الرحمن الرحيم

العدد الثالث

السنة الأولى

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات
قرش
١٠٠
٦٠ عن نصف سنة
وللطلاب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

١ جمادى الأولى سنة ١٣٧١ — ٢٨ يناير سنة ١٩٥٢

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

(٣)

بين الشيطان والإنسان:

« قال فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين(١) »

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما صور الله آدم عليه السلام فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو؟ فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك »

ومعناه أنه خلق ضعيفاً لا يتمالك لمهام الأمور ، ولا يتماسك أمام المغريات التى تتزين له وتعرض لفتنته . . قال الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم : (أى لا يملك

(١) الأعراف ١٦ — ١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

العدد الثالث — السنة الأولى

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربى
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات
صـ
١٠٠
٦٠ عن نصف سنة
وللطلاب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

١ جمادى الأولى سنة ١٣٧١ — ٢٨ يناير سنة ١٩٥٢

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

(٣)

بين الشيطان والإنسان:

« قال فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين(١) »

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما صور الله آدم عليه السلام فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو ؟ فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك »

ومعناه أنه خلق ضعيفاً لا يتمالك لمهام الأمور ، ولا يتماسك أمام المغريات التى تتزين له وتعرض لفتنته . . قال الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم : (أى لا يملك

(١) الأعراف ١٦ — ١٧

نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل لا يملك نفسه عند الغضب . وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه)

وكل ذلك متسق مع ما قدمنا — فى القالين السابقين — من أوصاف الإنسان التى يستمدها من خصائص طينته ! !

وهى أوصاف لا ترشح صاحبها لعبء من الأعباء ولا لمنهج سليم سديد . . وكيف يرجى أن يكون كفؤا لشىء من ذلك وهو لا يجد فى طينته تلك من عدة إلا ما يجده أى حيوان أعجم فى جبلته ؟ !

ولكن الإنسان — على ما عرفنا سابقاً — لا يرجع فى استعداده إلى خصائص الطين والحمأ المسنون فحسب ، بل يرجع كذلك إلى خصائص الروح العلوى الذى نفخه الله فيه ، وهى وحدها مدد قوته ورشده .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا فى حديثه الذى أوردناه ، أن إبليس عرف نواحى الضعف فى الإنسان حين رآه أجوف ! . . ولا شك أنه عرف كذلك فيما بعد ما أودعه الله فيه من خصائص الروح التى نفخها فيه . . فإذا جاء الشيطان يسلخنا عما استودعنا الله من كرامته فهو هدفه الذى اختاره على علم ، وركز فيه جهده على عمد ، ليرد فريسته إلى أسفل طبيعتها ؛ وذلك هو هلاكها الذى أراده بقوله : « فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم »

***

الصراط المستقيم :

والصراط المستقيم هو الطريق السوى الذى تهدى إليه فطرة الله فى الإنسان . . . أو هو السلوك الفاضل الذى لا ينحرف به صاحبه يمنة أو يسرة عما يرضى الله والناس ؛ وأصول هذا السلوك مركوزة فى فطرة الإنسان ، يعرف بها الخير والشر ، والحسن والقبيح ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بيّن والحرام بين » فمن كان ذا فطرة سليمة واضحة هدى إلى المنهج السوى ، إلا أن يقعد له الشيطان بسبيله فيلبس عليه أمره ، ويحجبه عن مصادر النور فيه ، والله سبحانه يقول فى الحديث القدسى : « إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم[1] »

وقال جماعة : إن الصراط المستقيم هو الإسلام ، وقال آخرون : هو القرآن ؛ وكلا القولين حق ، يتسق مع ما نقول ولا ينقضه ؛ فالقرآن الكريم — وإن تأخر

(١) رواه ابن كثير فى تفسيره سورة الروم

نزوله — هو روح الإسلام الذى اختاره الله سبحانه لعباده منذ الأزل ، وأرسل به الرسل ، ودعا إليه خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » .

فسلوك المرء ونهجه الذى يسير عليه هو الصراط .

واستعداده الفطرى لعمل الخير ومعرفة الله هو الذى يقوّم له نهجه ، ويسدد سبيله بما يلهم من صالح العمل وينكر من سيئه .

ولكل سبيل غاية ، والله سبحانه هو الغاية التى يجب أن يقصدها أهل ذلك الصراط بكل قول أو عمل .. فما أريدَ به وجه الله فهو السداد والاستقامة على الصراط السوى .

ولكن الشيطان يقعد له هذا الصراط ويتربص به غفلة عن الله ؛ فإذا غفل صار ليناً فى يده الشيطان لايتمالك ، وسهل عليه أن يميل به يميناً أو شمالا عن طريقه المستقيم .

ولقد أوضح الله سبحانه ذلك فى مثل رواه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ضرب الله مثلا صراطاً مستقيما ؛ وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ؛ وعلى الأبواب ستور مرخاة ؛ وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا (٢) . . وداع يدعو من فوق الصراط ؛ فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه . . . فالصراط الإسلام . والسوران حدود الله . والأبواب المفتحة محارم الله . وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله . والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم (٣) » .

وهو مثل جليل يقرب الله به سبحانه كثيراً من الحقائق إلى أذهاننا ، ويبين فيه معنى الاستقامة ، ويشير إشارة واضحة إلى ما فى الإنسان من استعداد للميل والانحراف عن الجادة ، ويقرر فضل الفطرة — واعظ الله فى قلب ابن آدم — كلما همت غرائزه التى لا تمالك أن تنحرف به يمينا أو شمالا لمقارفة ما حرم الله . . . .

الخير والشر

وهذا يفضى بنا إلى ما فى الإنسان من استعداد للخير والشر . . وغنى عن البيان أن الاستعداد للخير هو من إلهام روح الله الذى نفخه فينا . وأن الاستعداد للشر هو قابلية خصائص الضعف للانحراف عن الله ، وذلك أصح ماقيل فى تفسير قوله سبحانه :

---

(١) الروم ٣٠

(٢) لاتعوجوا : أى لاتميلوا يمينا أو يساراً .

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى .

« ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورَها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها[١] » . فمن استقام مع إلهام فطرة الله فهو المتقى ، ومن استجاب لغرائزه التى لا تتمالك ضل سواء السبيل . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه الآيات قال : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » .

ولا سبيل للشيطان أن يأتى الإنسان من قبل خصائصه الروحية ، فهى سلطان الله فيه ، لا قبل للشيطان أو غير الشيطان أن يقربه ؛ والمرء فى عز بهذا السلطان وحصن مكين ما استظل به واستمسك بهديه ، فإذا غفل عنه كان فى حراسة غرائزه التى لا تتمالك ، وكان بها أهون شىء على الشيطان .

وغرائز الضعف التى لا تتمالك ، هى غرائز الإنسان الدنيا التى تخلد به إلى الأرض ، ولا توحى له أن يرفع بصره إلى السماء ، وقد أفاض علماء النفس فى شرحها وتحليلها ، ومنها غريزة التملك وحب البقاء ، وهما الغريزتان اللتان اتخذهما الشيطان وسيلته فى استدراج آدم إلى معصية الله : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ »

فإذا ذهبنا إلى أن غرائز الضعف فى الإنسان هى عدة الشيطان العتيدة فى إفساده كان العقل والنقل مع ما نقول .

ذلك إلى أن الشيطان — لعنه الله — قال : « لأتخذن[٢] من عبادك نصيبا مفروضا » . . . فكل من يصدق عليه أنه من عباد الله ، للشيطان فيه نصيب مفروض مهما صفا وترقى فى كماله ؛ ولأمر ما سجلت كتب السيرة أن الله سبحانه كان يطهر رسوله صلى الله عليه وسلم من آن لآخر ، إذ كانت الملائكة تشق صدره الشريف وتستخرج منه حظ الشيطان !

فهل يكون ذلك الحظ أو هذا النصيب المفروض الحتم إلا استعداد كل آدمى للشر عن طريق تنزى غرائزه الحيوانية لزينة الحياة الدنيا ؟

نعم إن الآية تحتمل أن يراد بالنصيب معنى العدد قليلا كان أو كثيرا ، ولكن احتمالها لما اخترناه أوضح وأقوى ، فإن الآية به تبدو واسعة الأفق ، فتشمل العدد وغير العدد بدون تكلف أو تأويل لنصها اللغوى ، ولا سيما أنه لن يستطيع أن يتخذ من عباد الله أى عدد إلا إذا كان له فى النفوس جانب ممهد ، ونصيب مطاوع ! !

ذلك إلى أن غرائز الإنسان الدنيا جبلة فيه محتومة لا ينسلخ منها ولا تفارقه ، فهى بعض التقويم الذى خلقه الله فيه ، ولا تبديل لخلق الله ؛ وذلك يتجانس مع وصف

(١) سورة الشمس : ٧ — ١٠ .
(٢) النساء ١١٧ .

النصيب بأنه حتم مفروض . . . قال الأستاذ الشيخ محمد عبده فى تفسير المنار : (النصيب المفروض هو ما للشيطان فى نفس كل أحد من الاستعداد للشر الذى هو أحد النجدين فى قوله تعالى : « وهديناه النجدين » ، فهذا هو عون الشيطان على الإنسان ، وهو عامّ فى الناس حتى المعصومين ، ولكن أخبرنا الله تعالى أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين ، فإذا هو زين لهم شيئا لا يغلبهم على عمله ؛ فما من إنسان إلا ويشعر من نفسه بوسوسة الشيطان ، فإن لم يكن بالشرك فبالمعصية والإصرار عليها والرياء فى العبادة[1]) .

***

المحور الأصيل لعمل الشيطان :

قال الشيطان وهو يحاج ربه : « فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين[2] » .

وقد ذهب المفسرون مذاهب فى تأويل قوله : « من بين أيديهم » و « من خلفهم » و « عن أيمانهم » و« عن شمائلهم » . وخالف بعضهم فيها بعضا ، وكلها تعتمد على الرأى والاجتهاد فى الفهم ؛ ولكن لا شك فى أنه قول يبين مدى ما سيبذل صاحبه من جهد فى الاحتيال على فريسته ، وأنه لن يدع فى آدمى ثغرة إلا نفذ إليه منها .

ومضى الشيطان يتم محاجته لربه ويبين نهجه الذى سيتخذه إلى ما يريد فقال : « رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين[3] » .

ولقد قلنا فى المقال السابق إن ما بيننا وبين الشيطان إنما هو حرب صفات لصفات لا يعبأ فيها بإراقة دم ولا تمزيق أشلاء ، وإنما يعنيه محو صفات القوة والخير ، وطمس معالم الفطرة التى تمد صاحبها بذلك ، فإذا نكبه فيها فقد أرداه وأورده موارد الهلاك .

وأحب أن يذكر القراء ، بل أن يذكر المسلمون جميعا أن ما أصابهم من تخلف وضعف وهمود إنما هو أثر انهزامهم أمام الشيطان فى معركة الخير والشر انهزاما نزلوا فيه طائعين عن مثلهم العليا ، وتحولوا به راغبين عن سلطان الله الذى هو مصدر عزتهم وقوتهم ، وأنهم لم يفقدوا أوطانهم إلا لأنهم فقدوا أخلاقهم واتبعوا ما زين الشيطان.

فإذا كانوا جادين فيما يزعمون لأنفسهم من نهضة فليأخذوا ما يعرضه عليهم ربهم

---

(١) الجزء الخامس ص ٤٢٦ من تفسير المنار . (٢) الأعراف ١٦ — ١٧

(٣) الحجر ٣٩ — ٤٠ .

فى هذه القصة مآخذ الجد والقوة ، فهو إنما يعرض الخصائص الأصيلة لخطط الشيطان فى حرب الإنسان .

إن الأمة الجادة فى منازلة أعدائها ، تبذل كل جهد ممكن لتعرف أسرار العدو ومناهجه وخططه ولا تبخل فى هذا السبيل بأى ثمن مهما غلا ، فإذا ظفرت بما تريد استطاعت أن تعكس عليه قصده وترده على أدباره مدحورا .

وها هى ذى القصة الكريمة تعرض علينا أصول الخطة العامة لكل ما يضع الشيطان من كيد ومكر ؛ فإذا كنا مؤمنين حقاً بأن خصائصنا الروحية لا تقل خطراً عن مقوماتنا الاقتصادية والوطنية — إن لم تزد — فلنتدبر أصول تلك الخطة ، ولنحزم أمرنا ،ولنحرز أنفسنا من كل كيد يراد .

وأخشى ما أخشاه أن يعتبر هذا الكلام ضرباً من النصائح الهينة ، وأن تظل موازيننا لا تحفل إلا بالأمور المحسة والقيم المتداولة فى الخارج ، فيكون الاهتمام بالعدو الظاهر أولى فى تقديرنا من الاهتمام بالعدو الباطن ، وتكون مقدساتنا المعنوية أهون من أن تشغل فى أذهاننا بعض ما تشغله الأمور المادية .

قال الشيطان فيما عرضته الآية السابقة :

لأزينن لهم فى الأرض .

ولأغوينهم .

فهما أصلان خطيران ، منهما تحاك كل المكائد ، وعليهما تدار الخطط والمعارك : التزيين فى الأرض ، والإغواء . .

***

الغىّ :

والغىّ فى الإنسان حالة معنوية تعترى صفاء باطنه فتفسده . وذهب اللغويون إلى ربطها أو مقارنتها بما يعترى باطن الفصيل من فساد التخمة والبشم بكثرة الرضاع ، أو بما يعتريه من هزال وضمور إذا منع من الرضاع بسبب من الأسباب . . قال القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن : (قال ابن الأعرابى : غوى الرجل غيا إذا فسد عليه أمره أو فسد هو فى نفسه ، وهو أحد معانى قوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » أى فسد عيشه فى الجنة ، ويقال : غوى الفصيل إذا لم يُدِرَّ لبنَ أمه[1]) .

وقال صاحب القاموس المحيط : « غوى الفصيل بشم من اللبن ، أو منع من الرضاع فهزل وكاد يهلك » .

(١) الجزء السابع ص ١٧٥

والإنسان يعتريه الفساد أو الغى إذا انطمست معالم الفطرة فى نفسه أو انقطع مدد الروح الإلهى عنه ، وهو المراد بقوله : « لأغوينهم أجمعين » .

والغى ضد الرشد . . والرشد رشدان :

أما أحدهما فحالة الإدراك التى يميز بها المرء مايصلح معاشه وما يضره ، وهو المعنى بقوله سبحانه فى القاصرين من الأيتام : « فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » . وهذا الرشد لامعول عليه إلا فى تدبير المنافع المادية ، وهو درجة هينة من التميز يبلغها الكافر وغير الكافر متى أدرك سناً معينة فى العادة .

أما الرشد الآخر فهو درجة رفيعة من إدراك البصيرة ، يهتدى بها المرء إلى حقائق الوجود ، ويميز قيم المعنويات ، فلا يشتبه عليه حق بباطل ، ولا يلتبس عليه الزيف الرخيص بالقيم النفيس ؛ وهو الذى ذهب موسى عليه السلام يطلبه من العبد الصالح : « هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا[1] ؟ »

وأصحاب هذا الرشد يبدون فى سائر الناس كالعماليق بين الأقزام ، وينظرون إلى سواهم كما ينظر الرجال إلى الأطفال وهم يعبثون . وهؤلاء هم أوصياء الإنسانية التى لم تبلغ رشدها والقائمون على هدايتها بإذن الله إلى سواء السبيل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا[2] » .

وإنك لترى أثر ذلك الرشد فى البحث عن الحق والاهتداء إليه فى سيرة إبراهيم عليه السلام إذ قال الله فيه « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين[3] » . فإنه أدرك بتميزه العالى أن هناك حقا أكبر فى هذا الكون غير تلك الكائنات الأرضية الهينة ، وغير تلك الكائنات السماوية التى تسخرها النواميس وتتداولها الأحوال ؛ فليس هو كوكبا آفلا ، ولا قمرا زائلا ، ولا شمسا غاربة : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

فأول ما أدركه إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو سقوط قيمة المرئيات ، وقصور كل شىء منها أن يكون ربا له . . فقد قرأ على هذه المرئيات نفسها من صفات الخالق سبحانه ما جعله يلتمس ربه فى سواها .

والله سبحانه هو الحق . . وإليه يرجع كل حق ؛ وأول عناصر الرشد كما ذكرنا إبصار الحق أو إدراكه ، وتميز قيم المعنويات ، ومعرفة ماله قدر منها وما ليس له قدر . فصفات الله سبحانه حق ، وهى مسطورة على كل شىء ! .

---

(١) الكهف : ٦٦ (٢) البقرة : ١٤٣ (٣) الأنبياء : ٥١

والعدل حق ، والمساواة حق ، والحرية حق ، والصدق والرحمة والأمانة والبر والشجاعة فى الحق والثبات عليه حق ؛ وما سواها من أضدادها باطل .

وتعظيم الله حق ، وتعظيم سواه باطل . . ودعاء الله والتوجه إليه والطلب منه حق ، وفعل ذلك لسواه باطل . . وطلب مرضاة الله والتقرب إليه بصالح العمل وطيب القول حق ، وفعل ذلك لسواه باطل . . وحيازة المرء لما يؤتيه الله من خصائص الحق وصفات الخير والكمال خير من كل ما يحوز ويحوز سواه من عرض هذه الأرض وزينتها ما لم يكن سبيلا لصاحبه إلى الحق وعونا له على طاعة الله « وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى ، أفلا تعقلون » « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ، لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم[1] » .

وإدراك هذه الحقائق وتمييز قيمها هو مقتضى الرشد ، فمن أدركها كما يدرك أن الواحد نصف الاثنين فهو الراشد وإلا فهو القاصر وإن حمل من إجازات العلم وألقابه ما حمل .

وإنك لترى أثر هذا الرشد فى ثبات إبراهيم عليه السلام إذ عرض على النار فما تغير له رأى ؛ وإنه لثبات لم يتكلف له شجاعة ، فإن الحق الذى يفتن من أجله ساطع فى بديهته سطوع الشمس فليس فيه شك لديه . .

ذلك إلى أن أرباب هذا الرشد يدركون لأنفسهم وجوداً غير الذى يعيش فيه عباد البدن . . وجوداً يحيون به مع كائناتهم الروحية وأشخاصهم المعنوية التى أراد الله أن تصاغ من خصائص الحق لا من عناصر الطين والتراب . . . وإن كلا منهم ليدرك مدى تعلق حياة كائنه الروحى بالحق الذى آمن به كما يدرك الرجل العادى مدى تعلق حياة بدنه بالهواء الذى يتنفسه ، مع فارق يعرفونه ولا يدريه سواهم ، هو أن البدن قد يظل على قيد الحياة دقيقة أو دقائق إذا احتبس عنه الهواء ، أما الكائن الروحى فعلى مثل حد السيف إن زاغ عنه هلك فى أقل من لمح البصر ... وحياة هذا الكائن عندهم هى الحياة ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . . فإذا سووم أحدهم أو فتن على الحق الذى تجلى فى رشده وتمييزه سخر بالسوم وقال : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما رضيت به بديلا ، أو قال لفاتنه الذى يعرضه على صنوف العذاب . اقض ما أنت قاض إنما تقضى أدنى الحياتين وأرخص الوجودين ، والله خير وأبقى .

ثبات هؤلاء على الحق ليس مصدره شجاعة متكلفة أو صفة مكتسبة ، بل هو الرشد الذى أبصر المعنويات ، وميز القيم ، وأدرك حقائق الوجود .

(١) الحجر ٨٧ ، ٨٨

ذلك هو الرشد الذى يحرق كبد الشيطان ، ويجهد جهده أن يحتالنا عنه ، ويطمس نوره فى بصائرنا ... وعكسه الغى .. فإذا كنت قد أدركت الفرق بينهما فقد أدركت الفرق بين النور والظلمة، والحياة والموت ، والعقل والحمق ، وما يريدلنا الله وما يريدلنا الشيطان !

يريد لنا الشيطان هذا الغى الذى نفقد به إدراكنا العالى وتمييزنا الرفيع ، فلا نبصر فى الحياة إلا ما حولنا من شخوص المادة الحائلة ، ولا نميز إلا قيم بعضها بالنسبة لبعض ، ولا نشتغل إلا بتثميرها واستيلادها وتداولها ؛ وتلك هى النكسة البائرة والصفقة الخاسرة التى لا يود الشيطان سواها ! !

***

التزيين :

أما التزيين فى الأرض ، فقد فسره ابن كثير بأنه تزيين المعاصى ، وفصل الزمخشرى ما أوجز ابن كثير ، فالأرض هى الدنيا : (لأزينها فى أعينهم ولأحدثنهم بأن الزينة فى الدنيا وحدها حتى يستحبوها على الآخرة ، ويطمئنوا إليها دونها) .

وكل ذلك صحيح ويجمعه أنه يريد أن يزين كل زيف يعرض للمرء فى حياته ، فإذا أقنعه بقبوله والتحول إليه فقد رده إلى الخسارة والخيبة .

تزيين المتاع التافه :

ومن التزيين ما يتم بإفساد الذوق العام للمرء .. ونعنى بالذوق حالة الوجدان التى يثيرها بالقلب تجاوبه أو تمييزه لقيمة من القيم . . . فقد يزهد فى الشىء أو يقبل عليه ، وقد يطرب له أو ينقبض عنه ، وقد يحبه أو يكرهه ؛ ولكن بعد أن يذوقه ويزنه بميزانه

وأعلى ما يذوقه القلب ويفرح له ، الإيمان بالله سبحانه ؛ فإذا وجد المرء حلاوة ذلك الإيمان وأحس زينته فى صدره فهو آية سلامة الذوق وصحته ، وإليه يتجه قوله سبحانه : « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة [1] » .

فإذا فسد الذوق بهذا التزيين انطمس فيه تأثره بالمعانى القيمة الجميلة ، وانحط إلى اشتهاء أبخس القيم وأوكس العروض من أنعام وبنين ونحوها ؛ وهذا بعض ما يصيب المرء من نكسة بتزيين الشيطان له ؛ وقد ندد الله به ونعاه على أهله فى قوله سبحانه : « زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار [2] . . »

(١) الحجرات ٧ — ٨

(٢) آل عمران ١٤ — ١٥

تزيين المظاهر :

ومن التزيين ما يتم بفساد تقدير المرء لقيم الرجال وتمييزه لحقائق الناس ، بحيث تغدو مقاديرهم عنده مقيسة بمظاهرهم من الجاه أو المال أو الزينة ؛ فمن يملك من ذلك شيئا فهو الجدير بالتقدمة والرفعة مهما كانت تفاهة معدنه النفسى ، ومن لا حظّ له منه فلا ميزان له مهما ضم فى إهابه من عظمة النفس ، وسمو الحقيقة ؛ وقديما عجب أهل الطائف أن ينزل الله رسالته على رجل من غير أهل الثراء والرياسة ، فقال كبارهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ » ! فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله : « أهم يقسمون رحمة ربك ؟ »

وهذا التمييز الخاطىء هو أثر التزيين الذى يرد الإنسان إلى مظاهر الصور والأشكال بعيداً عن الجوهر الحق والقيم الأصيلة ؛ فرب شخص يرجح أمة وهو لا يزن عند هؤلاء جناح بعوضة ، ورب أمة منهم لا ينظرون إلى الناس إلا من زوايا الحدق وهم لا يزنون فى ميزان الله رجلا واحداً ممن يعيشون فى حقائق نفوسهم ؛ وما أحكم ما أصاب القرآن هدفه إذ صور تلك الحقيقة بقوله الحكيم : « زُين للذين كفروا الحياة الدنيا . . ويسخرون من الذين آمنوا . . والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب »

وهذه حال لا يصلح عليها مجتمع ، ولا تزدهر بها فضيلة ؛ ولذا كان لزاما على المصلحين وأصحاب الرسالات ألا يعبأوا بذلك الغثاء ، ولا يلتفتوا إلى شىء من تلك الزينة ، ولا يختاروا أنصار رسالتهم ودعائم إصلاحهم ومجتمعهم الذى ينشدون ، إلا من ذوى القلوب الذين عرفوا الحق وأرادوه ، وعملوا له وأقبلو عليه ؛ فأولئك هم الذين يضعون للمجتمع الحق تقاليده السليمة ، وموازينه السديدة ، ويصرفونه عن القشور التافهة ؛ وإلى هذا المقياس الحق والناموس الصادق وجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا (١) »

***

(١) البقرة ٢١٢

(٢) الكهف

تزيين الظنون والوهم :

ومن التزيين ما يخدع فيه المرء عن علمه إلى الجرى وراء الظنون والأوهام التى لا تستند إلى أساس ؛ وحسب الإنسان جهلا أن ينصرف عن العلم بالله ، فما تنفعه فلسفته أو معارفه الدنيوية بعد ذلك شيئاً ؛ فإن العلم بالله هو العلم بالحق ، وإذا فات الإنسان أن يجعل الحق أساس علمه فقل فى جهله وضلاله ما شئت : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم [١] »

وحسب الواحد من هؤلاء التافهين أن يلقى إليه الوهم خاطرا من الخواطر فى باب العقائد — مثلا — عن الله أو الملائكة أو النجوم أو البقر أو غيرها حتى يتلقفه ويجعل منه عقيدة يناضل دونها ، ويحيا عليها ، ويورثها من وراءه ؛ وما الزندقة والإلحاد وإنكار وجود الله أو تشبيهه إلا ظنون فاسدة لا تستند إلى أقل سند من طرق البحث والاستدلال العقلى السليم : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير [٢] »

والقرآن الكريم حافل بأنباء هذه العقائد الوهمية والرد على أصحابها رداً يستعدى العقل وحده فى نقض أصولها وبيان مكان الوهم منها « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ؛ أشهدوا خلقهم [٣] ؟ ! » « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ؛ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون [٤] »

وفى عصرنا هذا تروج مذاهب اجتماعية فاسدة ، لا تستند إلى فطرة سليمة أو سنة من سنن الله المقررة ، فهى من قبيل ما يفعل فى كل عصر شياطين الإنس والجن إذ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً بما يلقون من أوهام ويزينون من ظنون ؛ ولسنا بصدد بيان تلك المذاهب أو مناقشتها فلذلك مجال آخر .

(١) النجم ٢٩ — ٣٠
(٢) الحج ٨
(٣) الزخرف ٢٠
(٤) الزخرف ٢١

وميدان تزيين الظنون فى الحياة اليومية أوسع ؛ ومن فضل الله سبحانه أنه لم يرض للمؤمنين من عباده أن يكون لعقولهم لجاجة فى ذلك التيه المظلم فقال : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » إذ كثيراً ما يرتب المرء على تلك الأفهام نتائج بعيدة الأثر ، فيحب أو يكره ، ويقعد أو ينهض ، ويعارض أو يؤيد ، ويحارب أو يسالم ، تبعا لما يلقى إليه الوهم من تفسير خاطىء لبعض الأمور ، أو استجابة الظن تخيل معه أن سيكون كذا وكذا من النتائج ؛ وهذا من أسوأ ما يزين الشيطان للانسان ويفسد به رأيه . وقد نعى الله على قوم قعودهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم استرسالا مع وهم فاسد وتخيل سقيم : « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا . »

تزيين العمل السيء :

ومن تزيين الشيطان أن يلقى فى صدور أهل المعاصى أنهم أفضل وأقوم من سواهم ، وهذا باب يطول استقصاؤه ؛ وما رأينا مدمنا أو مقامرا أو مسرفا على نفسه بلهو وفسق ، أو لصا كبيراً أو صغيرا إلا وقد زُين له سوء عمله بضروب عجيبة من المسوغات « كذلك زُين للمسرفين ما كانوا يعملون . »

ومن التزيين ما يخيل فيه إلى الجبارين والطغاة من أهل الجاه والسلطان أنهم على الحق وأن مناوئيهم من المستضعفين على الباطل ؛ وقديما قال فرعون لقومه : « ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » « وكذلك زين لفرعون سوء عمله وما كيد فرعون إلا فى تباب . »

***

وبعد ، فتلك بعض الميادين التى يغشاها الشيطان فيزين للانسان ما يبيره ويهلكه : يفسد له ذوقه العام فلا يطرب إلا لمتعة الحيوان ، ويفسد له رأيه فتروج فيه الظنون والأوهام ، ويفسد له مقاييسه الاجتماعية فتختل فى نظره القيم والأوضاع ، ويزين له سوء عمله فيراه حسناً ؛ وذلك أسوأ ما يُقضى على إنسان : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا[٤] » . أعاذنا الله من كيد الشيطان وتزيينه ، وهدانا سواء السبيل .

---

(١) يونس ١٢ (٢) المؤمن ٢٩
(٣) المؤمن ٣٧ (٤) الكهف ١٠٤

شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

١ — تهاجم الشريعة الإسلامية التى نزل بها القرآن من مواطن علوها ؛ فيتخذ المغرضون الذين لا يريدون بالإسلام إلا خبالا من الأحكام التى تدل على علو الشريعة فى مناهجها وإصلاحها ونظمها دليلا على عدم صلاحيتها للأزمان ؛ ويتبعهم الذين لا يدركون الأمور على وجهها ، ولا يمحصون الحقائق ، ويستخلصونها مما يلقى حولها من ركام ؛ بل يقلدون فى القول تقليداً ، ويرددون كل بدع ولو كان خطأ كل الخطأ ترديداً .

ولقد وجدنا الذين اعتسفوا طريق النقد ، واطرحوا كل ميزان للحق يهاجمون الشريعة فى كل ما ليس عندهم ، ويسير وراءهم من يحتذون طريقهم حذو النعل بالنعل. ينتقصون الشريعة دائما حاسبين أن ما عندهم هو المثل الكامل ، وما فى الشريعة هو المثل الناقص ، حتى التوحيد الذى لا يهضم العقل المستقيم سواه ، ينتقصون الشريعة للدعوة إليه ، واعتباره ركن الإيمان الأول : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . ألم تر « رينان » فيلسوف الفرنسيس يقول مستهينا بالمدارك والعقول : إن الوحدانية التى ينادى بها الإسلام ، ويعتنقها المسلمون دليل على سذاجة العقل السامى الذى لم يستطع هضم التثليث المعقد ؛ وإن معانى التثليث لا تستقيم إلا مع العقل الآرى العميق ، ونسى أن السيد المسيح عليه السلام كان سامياً ، ولم يكن آريا ، وليس له أن يقول إن المسيح إله ، فقد أنكر هو ذلك ، وشلحته الكنيسة من أجله ؛ ونحن نسير فى مدارجه لنلوى مقدم دليله على نتيجته ؛ فإذا كان السيد المسيح سامياً وهو بشر فلا بد أنه لم يدع إلا إلى التوحيد الذى لا يدرك الساميون سواه ؛ وأن التثليث الذى تقوله أوربا هو من تعقد العقول الآرية العميقة التصور ، البعيدة الخيال ؛ التى تتخيل ثم تخال ؛ وإذن فدعوة المسيح الأولى كانت التوحيد لا محالة ؛ وذلك ما نقره وما نرضاه .

٢ — ذكرنا هذا لنبين كيف يعتسف النقد الطريق المستقيم ، وهو مثل واضح للغرض يفسد الفكر ويفسد العقل ؛ وأحسب أن نقدم للطلاق فى الإسلام هو من هذا

القبيل ؛ فإن دراسة الطلاق الذى جاء به الإسلام تنتهى إلى أن ذلك النظام لا يمكن أن يصل إليه عقل محمد الأمى إذ لم تتفتق عنه العقول من قبله ؛ فلا يمكن أن يكون إلا من عند الله.

وكان الطلاق مطلقا فى الجاهلية ، وكان بابه مفتوحا فى الشريعة اليهودية ، لا يقيده إلا قيد رقيق واه ضعيف ، وهو كتابة الطلاق أمام القاضى .

فلما جاء محمد بالقرآن من عند الله جاء بجديد على الفكر فى هذه المسألة ، لم يقيد الطلاق بذلك القيد الواهى الضعيف الذى لا يحاجز دون الهوى ، ولم يمنعه منعاً مطلقا كما توارث المسيحيون ، وإن كانت بعض فرقهم قد أخذت تتحلل من المنع شيئاً فشيئا،ففتحوا الباب بزاوية ضيقة ، ولكنها قد توجد متنفساً للتحلل من زوجية فاسدة. ولم يجزه إجازة مطلقة كما كان يفعل الجاهليون ، ويتخذونه للمضارة والمكايدة ؛ يطلقون النساء ثم يعضلونهن بالمنع من الزواج !

٣ — والمسألة فى الطلاق : أن الزواج لا بد أن يقوم على أساس من الود الدائم المستمر ؛ لقوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » والزوجان كلاهما لصاحبه بمنزلة الشعار والدثار ، كما قال سبحانه وتعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

وإذا كان الود المستمر أساس العلاقة الزوجية المستمرة لكى تكون صالحة للبقاء ، فإنه إذا تقطع حبل القلوب وتنافر ودها ، واستحكمت النفرة ، ولم يمكن علاجها ؛ فإن العلاقة الزوجية تكون غير صالحة للبقاء وإن من المصلحة فصمها ، ومن الخير قطعها أو إنهاؤها .

ولكن كيف يكون القطع أو كيف يكون الإنهاء ؛ وكيف يتبين أن السبب المسوغ للطلاق قد وجد وهو استحكام النفرة ، وتقطع أوصال المودة ، ما السبيل إلى ذلك ؛ وكيف يعرف ؟

هنا نجد القرآن قد عالج الأمر علاجا نفسياً قلبياً فيه هداية للضالين ؛ وإرشاد وتقويم ؛ ذلك أنه عند الشقاق بين الزوجين أو خوفه أمر بتحكيم حكمين ؛ فقد قال تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما حكيما »

ودعا إلى محاولة الإصلاح ما أمكن ؛ وأمر بالتدخل للصلح عند وجود ما يدعو إليه فقد قال تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جناح عليهما أن

يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا ، فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

حتى إذا تعذر الصلح ، ورأب الشـلم ، ورتق الفتق لم يبق إلا التفريق بينهما : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيما » .

٤ — لابد من التفريق ، ولكن ما طرائقه ؟ وما مسالكه ؟ أيكون بيد الزوجين متفقين بحيث ينهيان ذلك العقد كما أنشآه . إنه بلا شك إذا تلاقت الإرادتان ، واتفقت الكلمتان بينهما على الافتراق كان الافتراق منطقياً ، والطلاق أمراً مستقيما ؛ وكل محاولة لعرقلة ذلك تكون ضد الفكر المستقيم . واعوجاجا فى الأمر ، بيد أنه لابد من تحقق أن ذلك كان لاستحكام النفرة من كل الوجوه ، بتحكيم الحكمين ومحاولة الصلح ؛ ثم بالقيود التى قيد القرآن بها الطلاق ، وسنبينها؛ وإن تلك هى القاعدة العامة فى العقود اللازمة ؛ فإنها تفسخ بتراضيهما كما تنشأ بتراضيهما ، ولكن الشرائع التى حرمت الطلاق لا تلتفت إلى هذه القاعدة . ولو أكلت البغضاء قلب الزوجين ، وحلت الشحناء محل الوداد ، والإخلاص ، ولقد ندد بذلك المحققون من علماء الفرنجة ؛ فهذا « نيتام » يقول : إن القانون يتدخل بين المتعاقدين فى الزواج حال التعاقد ، ويقول لهما : « أنتما تقترنان لتكونا سعداء فلتعلما أنكما تدخلان سجناً ، سيحكم عليكما بابه ، وتصم الآذان دونكما وإن علا منكما الصياح ، واشتد بكما الألم ، ولن أسمح بخروجكما ، ولو تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء » .

٥ — وإذا لم يتفق الزوجان على إرادة الطلاق ، بل كان إرادة لأحدهما فقط ! فهل يسوغ الطلاق ؟ لا شك أنه إذا كان الراغب فى الطلاق هو الزوجة لا يقع الطلاق إلا بحكم القاضى على نظام بينه الإسلام ، واستنبطه من كتاب الله وسنة رسول الله الأئمة الأعلام ؛ وسنشير إليه فى كلامنا .

أما إذا كان الراغب هو الزوج فهل يسوغ أن يكون الطلاق بيد القاضى ولا يسوغ سواه ؟ ذلك هو الأمر ، أو تلك هى القضية التى أثاروا حولها الغبار ، وتقولوا على الإسلام فيها الأقاويل ؛ وتبعهم فى ذلك من تبعهم من مقلدة المسلمين الذين يتبعون كل جديد ، ويعتنقون من الآراء كل بدىء ، وتستطار ألبابهم لكل صوت أو دعوة أو نقد يجىء من قبل الأوربيين ؛ كأن أوربا هى أرض الله المختارة ، أو جنته فى الأرض ، وسكانها هم شعب الله المختار .

لقد قالوا إنه فى هذه الحال لا يصح أن يقع الطلاق إلا بإذن من القاضى بعد بحث عن البواعث ، وتحرللوقائع ، ومناقشة ومجاوبة وإثبات ودفاع ، ونسوا أن شئون الأسر لا تجرى الأمور فيها بالإثبات والكتاب ، حتى تكون فيها المخاصمة والمداعاة فهى علاقة فى أصلها تجرى بالود . وما بين الزوجين لا يعلن بين الملأ من الناس ؛ ثم إذا لم يكن لدى الزوج من البواعث إلا البغض الشديد لزوجته ، والنفرة المستحكمة بينهما فهل يطلب إثبات باعث وراء هذا الباعث الخطير الذى يفسد كل علاقة زوجية ، ويذهب بكل الدعائم الصالحة التى يقوم عليها بنيان الأسرة ، وهل يطلب القاضى منه أدلة عليه ، وإذا كان المنطق والمعقول أن يترك أمر الإثبات ، وألا يبحث عن بواعث أخرى وراء هذا الباعث . فلاجدوى إذن فى كون الطلاق بين يدى القاضى وبأمره ، أو قوله ، وبين أن يطلق الزوج من تلقاء نفسه ؛ بل إن توليه الطلاق من تلقاء نفسه أحرى بالقبول ؛ لأن الترافع إلى القضاء يكشف الأسرار ، ويهتك الأستار ، ويثير ما لا يسوغ إعلانه ، ويتكلم الناس فيه بما لا يحسن بيانه .

وقد يقول قائل إن رفع الأمر إلى القضاء ، ولو كان مآل التطليق إلى أن يكون للزوج خالصا قد يدفعه إلى التريث ؛ بل إنه يكون تعويقاً ، وكل تعويق فى هذا الأمر ينفع ولا يضر ؛ فإنه يدفعه إلى التفكير فى أسباب البغض تفكيرا عميقا ، وعسى أن يحدث الله بعد ذلك أمراً ، فتكون المحبة ، وتكون سحابة البغض سحابة صيف تقشعت وإن لذلك القول وجاهته ؛ ولكن كشف الأستار بين القضاء ، وتحدث الناس بشأنها مما لا تقره العقول ، ولا ترضاه الطباع بل إن من شأنه أن يزيد البغض ، وليس من شأنه أن يخففه ، بل إنهما لو عادت بينهما الحيـــاة من بعد لرنقها تذكر ما كان بين يدى القضاء من دعاوى ، وما جرى فى مجلسه من أقوال ، ولقد سلك الإسلام طريقا لتعويق الانفصال وجعله فى حال تعذر الاتصال ، تـُوَصِّل إلى النتيجة المؤكدة ؛ وهى ألا يكون طلاق من الزوج إلا عند استحكام النفرة .

٦ — وتبتدىء تلك الطريق بتحكيم الحكمين ، ومحاولة الإصلاح وقد أمر القرآن بذلك أمراً لازما ؛ وقال جمهور الفقهاء إن التحكيم واجب وجوبا حتميا لا يصح التفريط فيه ، ومن يوم أن فرطنا فيه قد اعوج السبيل ، واضطرب الحبل ، وفتحت الثغرة لمن يتكلمون فى شأن الطلاق كأنه كارثة الزواج ؛ وما علموا أنه دواء لا داء ، وأنه علاج لا مرض .

ولقد ورد فى الأثر أن عقيل بن أبى طالب قد وقع بينه وبين زوجه خلاف ، فلما علم بأمره عثمان رضى الله عنه وقد كان الأمر فى عهده حكم الحكمين فأصلحا بينهما ، وأوجبه مالك وأحمد فى كل نفرة بين الزوجين لا يعلم سببها ، وجعلا ذلك لازما على القضاء إذا ترافع الزوجان إليه فى أى شىء من شئون الزوجية تبين من ورائه القاضى أن ذلك الخلاف يكشف عن نفرة وليس بين يديه من الظواهر ما يعرف به سببها .

حتى إذا كانت النفرة غير قابلة للعلاج ، وكان التفريق أمراً لا بد منه جعل القرآن الكريم التفريق تدريجيا لا قطعيا ؛ بالنسبة للزوجة المدخول بها .

وذلك أن النفرة إن كانت قبل الدخول ، فإن الإسلام جعلها قاطعة من غير تدريج ، لأنهما إن اختلفا فى أول الطريق كان من المصلحة الاجتماعية ألا يستمرا ، وأن يتجه كل منهما إلى وجهته ، كالرفيقين فى سفر ، إن اختلفا فى الطريق قبل ابتداء السير عدلا عن الرفقة ، ولم يوغلا فى الطريق ؛ واتجه كل إلى وجهته ؛ ولذلك لم يحرص القرآن الكريم على إعطاء فرصة للمراجعة بفرض عدة بعد الطلاق قبل الدخول ، عسى أن يراجعها فيها ويستأنفا حياة زوجية ، بل جعل الفرقة بائنة فاصمة ؛ فقد قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » . فلم يجعل الإسلام فى هذه الحال فرصة للمراجعة ؛ ولكنه أوجب أن يكون التسريح جميلا ، وأن تكون الفرقة غير مانعة من التراحم ، والمعاملة الحسنة والتسامح الكريم .

٧ — أما إذا كانت النفرة بعد الدخول ، فتلك هى التى احتاط القرآن فى أمرها ، وجعلها النبى صلى الله عليه وسلم فى دائرة لا يمكن أن يكون معها طلاق ، وثمة إمكان لعيش رغيد ، وهناءة وسعادة فى هذه الزوجية التى انفصمت عرا المودة فيها ، وسن فى سبيل ذلك سَنَناً مستقيما ، لو استقام الناس على طريقته ما ضلوا وما كانوا حجة على الإسلام ، وأول احتياط أن الفقهاء — مستنبطين من الآثار — اشترطوا فى الطلاق الذى يسير على مقتضى السنن المحمدى أن يطلقها ، وهو فى حال من شأنها أن يكون راغباً فيها ، فاشترطوا ألا يطلقها فى حال حيض ، لأن هذه الحال من شأنها أن تنفر الزوج من امرأته ، ولقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر لما طلق امرأته فى حال الحيض أن يردها إليه ؛ ولقد قال الله تعالى : « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » أى طلقوهن مستقبلات عدتهن ، وقد قال العلماء فى تفسير ذلك أن يطلقها فى حال طهر ؛ لا فى حال حيض ، واشترطوا أن يكون الطهر الذى طلقها فيه لم يحصل فيه دخول بها ؛

فإذا حصل دخول لايسوغ له أن يطلقها ؛ وإن فعل يكون الطلاق بدعيا لايسير على السنن المحمدي .

فإذا كان الطلاق فى طهر لم يدخل بها فإن ذلك يكون دليلا على نفرة قوية ؛ ولكنه لا يدل على استحكامها وتعصيها على العلاج ؛ بل يجوز أنها عاصفة تزول ، أو غيمة غضب قد تنكشف .

ولذلك يجيء الاحتياط الثانى ؛ وهو أن يكون الطلاق واحدة رجعية ، أى يجوز للزوج أن يراجع زوجته فيها ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ؛ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ، إن أرادوا إصلاحا ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم . الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

والاحتياط الثالث أن تقضى مدة العدة فى بيت الزوجية لا تخرج منه ؛ ولا يخرجها منه ؛ والخروج منه إتيان فاحشة مبينة فى ذاته ولذا قال سبحانه وتعالى : « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف » .

ولا شك أن رؤيته لها أو إمكانه الرؤية وسكناها فى بيته طول مدة العدة ؛ وقدرته على المراجعة واستمراره على الطلاق طول هذه المدة وهى نحو ثلاثة أشهر فى أكثر الأحوال وعدم محاولته المراجعة فيها دليل على أن النفرة مستحكمة وقد بلغت أقصى مداها ، وآخر منتهاها ، بحيث لا يمكن أن تكون عشرة صالحة بحال من الأحوال .

ومع ذلك فإن النفس قد تكون تائقة بعد العدة ، وأنه يمكن أن يتدارك الأمر ، فالشارع قد احتاط احتياطا رابعا فلم يجعل الطلاق الأول قاطعا قطعا غير قابل للوصل ، بل أعطى المطلق ثلاث طلقات على ثلاث دفعات ، فإذا كان الأول وانتهت العدة جاز استئناف الحياة الزوجية بعقد جديد ومهر جديد إذا كان ثمة احتمال لاستئناف حياة زوجية يؤدم فيها بمودة رابطة وعشرة حسنة ، وعدالة فى المعاملة من الجانبين .

وقد احتاط الشارع احتياطا خامسا ذكر فى القرآن ، وهو الإشهاد على الطلاق ؛ ولذا قال سبحانه وتعالى فى الطلاق والمراجعة : « وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا

الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا » .

ولا شك أن حضور الشهود العدول فى الطلاق قد يحملان المطلق على مراجعة نفسه قبل إيقاع الطلاق ، بل قد يحملانه على العدول بل قد يصعبان الأمر فى الطلاق فيمتنعان عن الحضور .

وقد قرر فقهاء الشيعة أن الإشهاد على الطلاق شرط فى وقوعه ؛ كما أن الشهادة فى الزواج شرط لإنشائه ؛ وأن ذلك هو صريح القرآن الذى تلوناه ؛ وأن ذلك هو الذى يتفق مع طبيعة ذلك العقد ؛ فإن شرطه الشهر والإعلان كما ورد فى الأثر « فرق ما بين الحلال والحرام الإعلان » وإذا كان كذلك فى إنشائه ، فلا بد أن يكون كذلك فى إنهائه .

٨ — هذه كلها احتياطات احتاطها الشارع الإسلامى ليكون الطلاق فى حال الحاجة إليه حيث تستحكم النفرة ، وتكون الحياة الزوجية بغضاء لا نعماء ؛ ويكون بيت الزوجية نيرانا بدل أن يكون نعيما وريحانا . وإن تلك الاحتياطات سنها الشارع الإسلامى بنصوص القرآن الكريم ، وبالهدى النبوى المحمدى ، وقد قال بعض الفقهاء من الشيعة الإمامية والظاهرية وغيرهم إن الطلاق إن لم يكن على ذلك المنهاج لا يقع .

ونبئنى أيها القارىء الكريم أى احتياط نفسى أدق من هذا وأحكم ، وهل يغنى غناءه تحقيق القضاء ؛ ومراجعة الإثبات إن كانت العواطف الإنسانية يجرى فيها التحرى والإثبات !! إن أعلم أهل الخبرة من علماء النفس الإنسانية فى الآحاد والجماعات لا يمكنه أن يبتكر مثل هذا ، وأقصى ما يصل إليه أن يدرك مرماه وغايته ومقصده ، وقد جاء به أمى لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم قط ، ولم يجلس إلى معلم قط ، ولم يكن عنده من تجارب الحياة أكثر من شخص يقيم فى بلد أمى ليس فيه علم ولا درس ، ولا بحث ولا استقصاء ، وليست له أسفار أكثر من مرتين ، فإذا قال هذا الأمى إن هذا علّمنيه اللطيف الخبير ، وإنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهل يكون كاذبا ، إن الوقائع تؤيده ، والحقائق تصدقه ، والعقل يقره مذعنا مؤمنا مطمئنا إذا لم يكن مئوفا بآفة من الغرض والهوى ، قد أركسته الشهوات وأضلته الأوهام

٩ — وقد يقول قائل إنك مهما تصور الطلاق بصورة الحقيقة التى يلجأ إليها ، والضرورة المرة التى يضطر المطلق إليها ، فإن ثمة ظلما واقعا بالمرأة ؛ فإنها الأخرى

قد تنفر من الزوج أشد النفور ، فكان ينبغى أن يفتح لها الباب كما فتح للزوج ، ولكنه غلّق دونها وأحكم تغليقه ، والجواب عن ذلك أنه لم يغلق دونها بل فتح لها ، ولكن بين يدى القضاء وبتطليق القاضى ، ولم يترك لها الأمر وحدها لسببين :

(أحدهما) أن الزوج قد تكلف فى سبيل الزواج تكليفات مالية كبيرة فليس من العدالة أن نجعل لها أمر التطليق تطلق نفسها كما تشاء ، فتضيع عليه تلك التكليفات المالية ؛ وإن هذه التكليفات تقيده إن كان الطلاق بيده ، ولا تقيدها إن كان بيدها .

(ثانيهما) ما لوحظ من أن المرأة تحكمها العاطفة ، وتؤثر فيها الحال الوقتية ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف معاملتها لزوجها: « يحسن إليهن الدهر كله ، ثم يسىء مرة فتقول : ما رأيت منه خيراً قط » وقد لوحظ أن النسوة اللائى تكون عصمتهن بأيديهن بمقتضى تفويض الطلاق يطلقن لأتفه الأسباب .

ولكن هل للمرأة أن تطلب الطلاق لمجرد أنها تبغض الزوج ؟ نعم لقد قرر ذلك المالكية وأخذوه مما روى فى حديث البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن امرأة ثابت بن قيس قالت : « يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعيب عليه فى خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام ، إنى لا أطيقه بغضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم قال : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة وبهذا افتدت » .

ومن هذا ومن بعث الحكمين عند الاختلاف إذا تعذر الوفاق قرر مالك رضى الله عنه أن القاضى إن تبين أنها ناشزة لبغضها لزوجها يفرق بينهما ، ويلزمها بالمهر الذى دفعه ، ولقد قال ابن رشد فى هذا المقام :

« الفقه أن الفداء إنما جعل للمرأة فى مقابلة ما بيد الرجل من الطلاق فإنه لما جعل الطلاق بيد الرجل إذا فرك المرأة جعل الخلع بيد المرأة إذا فركت الرجل [1] » .

١٠ — هذا هو الطلاق فى الإسلام ، وقد تهجم عليه المتهجمون ، وتبعهم الضالون ، وادعوا أن استمراره مفتوحاً سيؤدى إلى انهيار الأسرة المصرية ، وقد أثبتنا فى بحث

(١) الفرك : البغض مطلقا ، وقيل البغض بين الزوجين ، والفعل من باب فرح يفرح ، وورد شاذا من باب نصر .

كتبناه من قبل أن إغلاقه هو الذى سيقضى على الأسرة الإسلامية (١) ، لأنه يؤدى إلى بقاء زواج غير صالح للبقاء ؛ ولأن الإحصاء أثبت أن الطلاق لا يكثر إلا فى أول الحياة الزوجية ، فمعنى تغليق بابه إبقاء على زوجية ثبت فى أول أمرها أنها غير صالحة للبقاء ، وأنه يقل كلما دامت العشرة ، حتى يصير نادراً ، والنادر لا حكم له .

وإن فتح بابه هو حكمة اللطيف الخبير ، والذين غلقوه قد أدركوا مغبة التغليق ؛ ولذا قال (بنتام) فى أصول الشرائع ما نصه : « لو وضع قانون للنهى عن فض الشركات ، ورفع الوصايا وعزل الدليل ومفارقة الرفيق لصاح الناس أجمعون : إنه نهاية الظلم ؛ والزوج رفيق ، ووصى ، ووكيل ، وشريك وفوق كل هؤلاء ، ومع ذلك حكمت قوانين أكثر البلاد المتمدينة بأن الزواج أبدى . . . إن أقبح الأمور عدم انحلال ذلك الاتفاق ؛ لأن الأمر بعدم الخروج من حالة أو بعدم الدخول فيها » أى أن منع الطلاق يمنع الزواج ؛ وقد شرع الله الطلاق ، وهو العليم الحكيم ؛ وفى الموضوع التالى نبين الإعجاز القرآنى فى فرائض المواريث ، والله بكل شىء عليم ، وهو ولى التوفيق ؟



أنت والقرآن ...

قال إقبال :

« أشد ما أثّر فى حياتى نصيحة سمعتها من أبى : يا بُنَىَّ اقرأْ القرآن كأنه نزل عليك » .

---

(١) راجع بحثنا الذى نشر فى مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٤٥ .

بين الوحى والسيرة

وعدنا القراء فى العدد الماضى أن نوافيهم بلون من التفسير يلم بقصة جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مصورة فيما نزل عليه من الوحى ؛ وهو مبحث خطير كثير الشعاب وعر المسالك عميق الغور . ولسنا نزعم أننا أكفاء هذا الأمر الجليل ، ولكن حسبنا أن نشق فيه دربا ضيقا راجين أن يقيض الله من يوطىء أكنافه ، ويمهد سبله ، ويذلل قطوفه ؛ لينتفع الناس بهدى رسولهم على نهج فيه حرارة الجهاد ، ووضوح الأمر الواقع .

وها نحن أولاء ننجز للقراء ما وعدنا وبالله التوفيق ومنه المعونة .

وقصة جهاده صلى الله عليه وسلم فى تبليغ أمر ربه ، وهداية الناس به تبدأ منذ نزل عليه الوحى بقوله سبحانه : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . . . الخ » وهو أول ما نزل من الوحى على أرجح الأقوال . أما ما قبل نزول الوحى من آفاق سيرته المعطرة صلى الله عليه وسلم فلا يتعلق بمبحثنا هذا ، وقد تكفلت كتب السيرة بتفصيله .

روى الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها : « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . . »

وهذا الخبر يصور لنا حالة الإشراق والصفاء التى بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته ؛ فقد صفا طبعه ، ورقت نفسه ، وتخلص من حظوظ الشيطان ، واكتمل إشراق بصيرته ؛ فصار غير محجوب بشىء عن أسرار الوجود . وغدا قلبه النقى كالمرآة الوضيئة تلقط من أسرار المقادير ما شاء الله ؛ فإذا كان فى نومه تمثلت له الأسرار على صورة ما يريد الله من كائنات ؛ فما رأى شيئا منها إلا تحقق فى اليقظة كفلق الصبح . وتلك الحال إن هى إلا التهيئة التى لابد منها لتلقى الوحى ، والاتصال بخبر السماء على تجانس من الصفاء والشفافية .

ومن شأن هذا الإشراق أن يكون لصاحبه بصيرة أو فراسة يستشعر بها ملامح الخير والشر فى نفوس الناس ؛ فإذا رأى أحدهم لا يرى فيه صورة اللحم والدم ، بل يرى صورة شخصه المعنوى المؤتلف من ألوان الفضيلة والرذيلة ؛ فينقبض عن إنسان

وينبسط لآخر تبعا لما تستشف له بصيرته وفراسته فيه من ملامح وسمات .

وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الحظ الأوفى ، وسيرته فى الرسالة حافلة بما لفراسته الملهمة من عجائب الأخبار .

ولسنا ندرى هل كان ذلك من عوامل انقباضه صلى الله عليه وسلم عن المجتمع المكى ، وما كان يعج به من ألوان الهوى والإثم والغرور والصلف والشهوة والظلم والبغى ؟ .. هل كان أهل مكة وكبراؤها يبدون له ؛ فلا ترى بصيرته فى أحدهم إلا ما ينطوى عليه من دمامة الغرور والصلف ، ونتن الإثم والشهوة ، فلا يجد إلا أن يشيح بوجهه ويلتمس الراحة منهم بالعزلة فى جوف الجبل ؟ هل كان ذلك من عوامل انقباضه عن هذا المجتمع الفاسد ، وإيثاره الخلوة أو لم يكن ؟ فإن الخبر الذى رواه الشيخان عن عائشة يستمر فى وصف حاله صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته فيقول : « ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء (١) فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ، ويتزود لذلك ؛ ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فتزوده لمثلها . . . »

ما هذا الخلاء الذى حبب إليه وما عوامله ؟

إننا لا نقول إن بغضه لما فيه أهل مكة من جهل وعماية هو السبب الفرد الذى حبب إليه الخلاء ؛ بل نشير إلى لازمة من لوازم الصفاء الوجدانى الذى كان يعتمل بصدره صلى الله عليه وسلم فى تلك الفترة ، فإننا لا نستطيع أن نتمثله عليه السلام فى خواطرنا دون أن نلحظ ما كان فى كيانه الشريف آنئذ من حركات نفسية تتفتح بها بصيرته ، وتتفتق بها جوانبه ، ويبتهج بها وجدانه . إنها طلائع نور الكرامة الكبرى تترادف أسرارها من السماء على قلبه ؛ فهل يطمئن إلى رؤية الشرك والإثم والفاحشة تدب أمامه فى هياكل من لحم ودم ، وتطل عليه من وجوه كالحة صفيقة ؟ ،

وهل كان مما يحبب إليه الخلاء أنه كان يسمع فى صمت الطبيعة — كلما خلا إلى نفسه فيها — تسبيحا ينسكب فى كيانه من فم كل شىء حوله . . تسبيحا لا تسمعه أذن ، ولا يرتله لسان ، ولا يحمله صوت أو حرف ؛ فيجد له طربا أى طرب فى وجدانه ، ولذة عميقة لا يعد لها كل ما يجد الناس فى دنياهم من نعيم اللذات ؟ .

لقد أشارت السير وكتب السنة إلى ذلك التسبيح ، وإلى تلك الأصوات التى كانت تناديه بالرسالة ، فلا يرى حوله من هاتف إلا الحجر والمدر والشجر ؛ فيفضى لخديجة بما يجد فتثبته وتؤيده ، وتصرف عنه كل ما يظن من خواطر السوء .

إنها حال الصفاء والخلوص من الأكدار ، وزوال الحجاب ، والاتصال بسر

الكون وحقيقته . . ولهذا الاتصال وقعه الحسن فى النفس ، وحلاوته فى القلب . فهل حبب إليه صلى الله عليه وسلم الخلاء من أجل هذا ؟

لقد أثر عن غيره من أهل مكة ممن عاصروه أو سبقوه أن بعضهم كان يتحنث أو يتحنف فى الجبل ، ولكن حالهم غير حاله صلى الله عليه وسلم ؛ فهم كانوا يفعلون ما يفعلون تلقينا أو تقليدا أو ذهابا مع بقية مشوشة غامضة زعموها من مواريث دين إبراهيم عليه السلام . . أما هو فإن أمرا ناداه بذلك من وجدانه تجده فى قول عائشة رضى الله عنها : « ثم حبب إليه الخلاء » . فهو حب للخلوة شب بين جنبيه ؛ فلم يملك إلا أن يستجيب لدواعيه ، ويسترسل مع خواطره وهواتفه القدسية المباركة ! !

ماذا كان من شأنه مع نفسه صلى الله عليه وسلم فى تلك الخلوة ؟ ماذا كانت تحدثه الكائنات ؟ وماذا كان يقرأ فى صفحاتها من صفات وأسرار ؟

لقد ذهب عنه ضجيج المجتمع ولغط الناس ، وألقى بنفسه فى خلوة الطبيعة الصامتة الساجية ، فماذا فى نفسه من خواطر ، وماذا بينه وبين معالم الكون من حديث وتجاوب ؟ .

ما سر ذلك الفرح العميق الذى يفيض به قلبه ، وتلك الحلاوة التى لا يعرف لها كنها ، ولا يدرى لها سببا إلا أنها تحبب إليه الخلاء ؟ .

نستطيع أن نذهب مع التاريخ ببصائرنا إلى تلك الحقبة المباركة الفاصلة ، ونتمثل المجتمع المكى غارقا فى جهالته ؛ تجثم عليه ظلمة العقيدة والشهوة والجهل ، وعلى القرب منه ذلك البشرُ المهيب العظيم ، وقد انتبذ منهم خلوة بين جبال مكة ؛ يقلب بصره فيما حوله ، وبصيرته فيما شاء الله من ملكوت السموات والأرض ! !

نستطيع أن نذهب مع التاريخ لنتمثل ذلك فى الأرض ، ثم نتمثل معه ببصائرنا ما كان يجرى فى السماء .

إن مقادير الله توشك أن تطلع على الوجود بليلة غراء زاهرة لها من خصائص اليمن وأسرار البركة ما ترجح به فى ميزان الله ألف شهر .

وإن لهذه الليلة الفريدة فى أيام الله لشأنا .

أرأيت إلى الملك الجليل الكريم يريد أن يتلطف لبعض رعيته بأسنى ما لديه من هدية ، ماذا عسى أن يختار لها من ألوان الوشى ، ونفائس الديباج لتحمل فيه إلى من قدرت له ؟ .

إن من كمال التلطف المؤنس فى الهدايا أن تتجانس أناقة الظرف الذى تحمل فيه مع

مالها من سناء ونفاسة ؛ فأى ذخر ترى أعد الله له ليلة القدر لتكون الظرف المؤنس الذى يتلطف الله بإنزاله فيه لعباده ؟

إنه القرآن الكريم جامع أسرار الله ، وخزانة علومه ومعارفه لأهل هذه الأرض ، ومشرق نوره ، ومفاض رحمته ، وأسنى ما لديه للبشر من نعمة تهدى فى دنياهم تلك ، يوشك أن تنزل به الملائكة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا حيث مشارف عالمنا هذا الأرضى .

وها هى ذى طلائع الليلة المباركة تشرق فى ملكوت الله ؛ فتزين أرجاءه بأعلام البشائر احتفاء بمشرق النور السنى .

إن ضمير الوجود كان يهتز رضاء وبهجة ؛ إذ استشعر قرب انشقاق غيب الله عن الحق الواضح الذى تنجاب به ظلمات العقول والقلوب ، وما من شىء فى الملأ الأعلى إلا كان له شأن بإزاء ما عرف من إقبال الله على أهل هذه الأرض بالمنح والتلطف .

ترى أ كان لتلك البشائر التى اهتز لها ضمير الوجود ، وابتهج لطلائعها أهل الملأ الأعلى من صدى تردد فى هذه الأرض ؟

إنه ليس فى هذه الأرض من قلب هين لين ، حساس مرهف ، اتصل بسر هذا الوجود واتصل سر الوجود به ، فكان أهلا لأن يتجاوب وإياه كما أظله سر مقدار من المقادير ، وهو لهذا كله خليق أن تتراءى فى صفحته المجلوة ما شاء الله من أفراح الملأ الأعلى ، ليس فى هذه الأرض من قلب هين مرهف هذا شأنه إلا قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فهل كان الرسول العظيم فى خلوته الرائعة يستشعر فى ضميره حلاوة ذلك التجاوب الذى كان موصول الترادف بينه وبين ضمير الوجود ؟ وهل أدرك من تفسير صحيح لما انطبع فى نفسه الصافية وبصيرته المشرقة من معالم أفراح الملأ الأعلى ؟

وبعد ، فهل تأمل الأمى الموهوب الفذ وهو فى خلوته فيما حوله من شواهد الطبيعة ؟

إن للهضاب والكثبان ورءوس الجبال التى تمتد أمام بصره لخبراً يسمعه منها ، أو يقرؤه عليها من كان فى مثل بصيرته ، وفطرته المدركة المشرقة .

وتلك السماء الفسيحة الأقطار ، المترامية الجوانب ، الرائعة الخلق المستقرة فى علوها الشاهق بغير عمد ؛ أما لها من حديث يجلوه الصمت العميق ، ويكشف أغواره تأمل البصيرة النافذة ؟

ونجومها اللامعة المطلة عليه من قبتها المظلمة ؛ أمالها من خالق أسرج لها النور والضوء ، وأرسلها فى أفلاكها الأزلية سابحة ، وأمسكها بقدرته أن تنفرط أو تزول ؟

وهذا القمر الذى يجوب أقطارها ، ويجلو عن وجهها ظلمة الليل فى أشكال متباينة حتى يعود كالعرجون القديم . . . إنه آية ناطقة لو سمعت الآذان ! ! ومشهد يشير إلى سر خطير لو أبصرت العيون ! ! وصفحة خط عليها من سطور العبر لو أدركت البصائر وفقهت القلوب ! !

والشمس والبحر والناس والشجر والدواب والأنعام ؛ كل ذلك لوحات متفرقة فى هذا الوجود شاخصة لبصرك حيثما أرسلته ، ولكنها ليست ملساء أو غفلا من المعانى ؛ بل حافلة بأصدق الدلائل التى تحدثك عن خالقها الجليل الذى أبدعها ، وبرأها من العدم .

هل كان الأمى الموهوب الفذ صلى الله عليه وسلم وهو فى خلوته يجيل بصره وبصيرته الملهمة فى تلك الألواح الشاخصة من حوله ، فيقرأ عليها معانى بغير ألفاظ ، وسطوراً بغير حروف تفضى إلى قلبه بصفات الخالق العظيم جل وعلا ؟ .

لا ندرى ماذا كان يقرأ على ألواح الكائنات فى تأملاته العلوية ، وماذا كانت تحدثه تلك الكائنات فى صمتها البليغ عن خالقها العلى الكبير ؟ . . ماذا كان يقرأ ببصيرته وماذا كان يسمع بقلبه ، ووعيه الروحى كله فى تلك اللحظة القدسية التى سمت ببشريته إلى أعلى عليين ، والتى استسلم فيها إلى النوم حيث فجأه الوحى بقوله « اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . . . » فهل بين « اقرأ » هذه وبين حاله وتأملاته فى الخلوة من صلة وتناسب يكشف لنا عن لون من القراءة كان يقرؤه الرسول باسم الله على ألواح الكائنات بلا صوت ولا حرف ؟ .

يحدثنا الشيخان عن هذه القراءة فيما نقلا عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها : « فجأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه ، فقال اقرأ ، قال فقلت ما أنا بقارىء ، قال: فأخذنى فغطنى [1] حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ ؛ قال قلت ما أنا بقارىء ، قال فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ؛ فقلت ما أنا بقارىء ؛ فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره [2] حتى دخل على

(١) غطنى : ضمنى وعصرنى

(٢) بوادره : هى اللحمة التى بين المنكب والعنق

خديجة فقال . « زملونى . زملونى » . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : « أى خديجة مالى ؟ وأخبرها الخبرقال : لقد خشيت على نفسى . . . » قالت له خديجة : « كلا . أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . »

إن الله سبحانه يعلم أن هذا المختلى فى الغار أمى لا يقرأ ولا يكتب ؛ فكيف ينزل عليه الوحى بقوله « اقرأ . . . » ؟ .

« يتبع »

تاريخه صلى الله عليه وسلم . . . . .

« . . . . . وأريد أن أنص على معنى يغيب عن ملاحظة بعض المعاصرين ممن لهم مشاركة فى السنة ؛ ذلك أن تاريخه عليه السلام ، ليس كالتاريخ المدرسى أو الجامعى ، أو ليس كتاريخ الأبطال والرجال . . . فتاريخ هؤلاء يؤرخ ما تأثرت به الحياة بفعلهم وتوجيههم الذاتى المنبعث من عواملهم النفسية الشخصية ، أما تاريخه عليه السلام فهو تاريخ عمل الله السافر وغير السافر ، أجراه سبحانه بيد عبد ربانى ليس له من الأمر من شىء ، إذا نطق لم ينطق عن الهوى ، وإذا رمى فليست رميته ولكن الله رمى . . .

من « تذكرة الدعاة »

في ظلال القرآن

للأستاذ سيد قطب

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » آمين .

***

يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات السبع آيات ، سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة على الحد الأدنى ؛ وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن ، وإلى غير حد إذا هو رغب فى أن يقف بين يدى ربه متطوعاً لغير الفرائض والسنن .

إن فى هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية ، وكليات المشاعر والأحاسيس والتوجهات ما يشير إلى حكمة اختيارها للتكرار فى كل ركعة عند كل صلاة .

تبدأ السورة بعد البسملة بالتوجه إلى الله بالحمد ، حيث تتضمن الآية الإقرار لله بالربوبية المطلقة « رب العالمين » وهى إحدى كليات العقيدة الإسلامية . والرب هو المربى والراعى والسيد ، فالله لم يخلق الكون ثم يدعه لشأنه ؛ إنما هو يربى ويرعى ويسود ؛ والعوالم كلها فى رعايته وتحت سيادته . وله الحمد على ربوبيته المطلقة على العالمين .

الربوبية المطلقة هى مفرق الطريق بين النظام والفوضى فى عالم العقيدة ، بين الاهتداء إلى الناموس الشامل للعلاقة بين الخالق والخلق وبين الحيرة والتشتت وتعدد الأرباب . . . وكثيراً ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله خالق الكون وبين تعديد الأرباب المتحكمين فى الحياة ! وقد يبدو هذا غريباً ومضحكاً ولكنه كان ولا يزال ؛ فقديماً كان المشركون يقولون عن آلهتهم المتعددة : « ما نعبدهم إلا ليقربونا

إلى الله زلفى » فيعترفون بوحدانية الله وتعدد الأرباب . والكنيسة المسيحية تعتقد بألوهية الله ، ولكنها تسمى عيسى رباً . بل تجعل للأحبار والقديسين صفات من صفات الربوبية كما يقول القرآن : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » !

فإطلاق الربوبية لله هنا وشمولها للعالمين جميعا هو مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة ، ليتجه العالم إلى رب واحد ، يقر له بالسيادة المطلقة ، وينفض عن كاهله زحمة الأرباب الكثيرين وعنت الحيرة بين شتى الاتجاهات : « أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار » . ؟

« رب العالمين . الرحمن الرحيم » وهذه كلية ثانية من كليات العقيدة الإسلامية : الشعور بما في هذه الربوبية ، وهذه التربية والرعاية من رحمة بالغة عظيمة . فالعلاقة بين الرب والعباد هي علاقة رحمة ورعاية ، والشعور بالرحمة العميقة في هذه الربوبية المطلقة هو الصلة الداخلة بين العبد والرب . صلة القلب والضمير التي تقوم على الحب وتنبض بالحمد . فهي آصرة الاعتراف الخالص لا يشوبها خوف ولا قهر ، ولا يعكر صفاءها رغب أو رهب . إنما هي الاستجابة الطبيعية للرحمة الندية .

إن الله الرب في الإسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها ! ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في « العهد القديم » من الكتاب المقدس ، لأنه خاف أن تصبح لهم القدرة على عمل كل ما يريدون ! [1] . . كلا ! كلا ! إنما هي الرحمة البالغة في هذه الربوبية الكاملة .

والكلية الثالثة من كليات العقيدة الإسلامية تتضمنها الآية : « مالك يوم الدين » . والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة ، ويوم الدين يوم الجزاء . ومالك يوم الجزاء هو مالك أيام العمل . فالجزاء نتيجة والعمل سبب . فهو مالك الدنيا ومالك الآخرة جميعا .

وكثيراً ما اعتقد الناس بألوهية الله وخلقه للكون أول مرة ؛ ولكنهم في الوقت ذاته لم يعتقدوا بيوم الجزاء هذا ولا بملكيته لله تعالى : « وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما نحن بمبعوثين » ، فالاعتقاد بيوم الدين ، والاعتقاد بملكية الله المطلقة لهذا اليوم وللحياة قبله كلية من كليات العقيدة

(١) سفر التكوين . الإصحاح الحادي عشر . الآيات (١ — ٩) .

الإسلامية . كلية ذات قيمة فى انطلاق البشر من كل عبودية أرضية للأشخاص والأوضاع والاعتبارات ، وفى الاستعلاء على ضرورات الأرض وملابسات الحياة . ومن ثم فهى مفرق الطريق بين العبودية والحرية ، أو بتعبير آخر بين الإنسانية فى حقيقتها العليا التى أرادها الله لعباده وهو يقول : « ولقد كرمنا بنى آدم » وبين الصور المشوهة المنحرفة التى لم يقدر لها الكمال .

واختصاص الله بالتوجه إليه والاستعانة به « إيّاك نعبد وإياك نستعين » هى الكلية الرابعة التى تنشئها الكليات الأولى الثلاث . فلا عبادة إلا لله ، ولا اتجاه لغير الله . وما من قوة فى الكون إلا قوته تملك لأحد شيئا أو تستحق منه التفاتاً . فالله وحده يعبد والله وحده يستعان .

وهنا مفرق الطريق فى التحرر الإنسانى المطلق من القوى المخلوقة جميعاً قوة الإنسان أو قوة الطبيعة . أى التحرر من عبودية النظم ومن عبودية الأوهام . فإذا كان الله وحده هو المعبود والله وحده هو المستعان ، فقد تخلص الضمير من استغلال البشر والأوضاع والضرورات . وتخلص كذلك من استذلال الأساطير والخرافات والأوهام .

وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية ومن قوى الطبيعة .

فأما القوى الإنسانية بالقياس إلى المسلم فهى نوعان . قوة مهتدية تؤمن بالله ، وتتبع سنة الله ، وتنفذ شريعة الله . وهذه يجب أن يؤازرها ويتعاون معها . « وتعاونوا على البر والتقوى » وقوة ضالة ، لا تتصل بالله ، ولا تتبع سنته ولا تنفذ شريعته . وهذه يجب عليه أن يحاربها ويكافحها ويناوئها ويغير عليها . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

ولا يهولن المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية . فهى بضلالها عن مصدرها الأول — قوة الله — تفقد قوتها الحقيقية ، تفقد الغذاء الدائم الذى يحفظ لها طاقتها ، كما ينفصل جرم ضخم من كوكب ملتهب ، فما يلبث أن ينطفىء ويبرد ويفقد ناره ونوره ، مهما كانت كتلته من الضخامة ؛ على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع ، قوتها وحرارتها ونورها . « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ، و « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول ، وباستمدادها من المنبع الأول للقوة وللعزة

جميعا . والذى يستعين بالله وحده لن تقف فى طريقه قوة أرضية ، ولن يصيبه إلا ما كتبه الله له .

وأما القوى الطبيعية فموقف المسلم منها هو موقف الصداقة والتعرف والتأمل ، لا موقف العداء والرغبة فى القهر والسيطرة . فقوة الإنسان وقوة الطبيعة كلتاهما صادرتان عن قوة الله وعن إرادة الله .

إن العقيدة الإسلامية توحى للمسلم أن الله ربه قد خلق هذه القوى لتكون له صديقاً مساعداً متعاونا ؛ وأن سبيله لكسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها ويتعرف إليها ويتعاون وإياها . وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا ، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ولم يتعرف إليها ولم يصادقها .

وقد درج الغربيون على التعبير بـ « قهر الطبيعة » ولهذا التعبير دلالة ظاهرة على روح الغربى وضميره . إنه لايتصور علاقة بين الإنسان والإنسان ، ولا بين الإنسان والطبيعة إلا علاقة القاهر والمقهور ، المذل والذليل ، السيد والعبد . فهو إما أن يقهر الطبيعة ويقهر أخاه الإنسان ، وإما أن تقهره الطبيعة ويقهره أخوه الإنسان ! .

فأما المسلم فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير القهر والعداء والعبودية . علاقة التعارف والصداقة والاخوة . وموقفه من الطبيعة هو موقفه من الإنسان وموقفه من الحيوان أيضا . إنه يعتقد أن الله هو مصدر هذه القوى جميعا ، فعليها أن تتعاون وتتصادق ، وعليه أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها . فالله وحده هو الذى يسخر هذه القوى له ، وليس هو الذى يقهرها . وكل مخلوق مسخر لله وحده « سخر لكم ما فى الأرض جميعا » . « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » .

وإذن فلن تملأ الأوهام قلبه تجاه قوى الطبيعة وأسرارها ، كما لن تأكل الأحقاد قلبه عليها . إنه يؤمن بالله وحده ، ويستعين الله وحده ، وهذه القوى صديقة له لأنها من خلق ربه ، وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها ويصادقها ، فتبذل له معونتها ومودتها وكنوزها . وما أروع قول الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ينظر إلى جبل أحد . « هذا جبل يحبنا ونحبه » . ففى هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول من ألفة وود وتجاوب بينه وبين الطبيعة الصامتة فى أضخم مجاليها .

***

وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية فى العقيدة وتقرير الاتجاه إلى الله وحده للاستعانة يبدأ بالتطبيق العملى لها بالتوجه إلى الله بالدعاء على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها . « اهدنا الصراط المستقيم » ودعوة الهداية إلى الصراط المستقيم هكذا على وجه الإجمال تحمل فى ثناياها كل مدلولات الأدعية الجزئية بالرزق أو العافية أو المغفرة أو الثواب . . . وما إليها . إنها دعوة تغنى عن كل دعاء ؛ فالصراط المستقيم طريق الوصول والنجاة والهداية . وإذا أطلق شمل كل حركة وكل سكنة ، وكل عمل وكل عبادة ، وشمل الدنيا والآخرة . وهذا الشمول هو المقصود هنا لأن السورة كلها كليات ، تناسبها دعوة كلية للاهتداء .

« الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » نوع من التوضيح على طريقة الإجمال أيضا . وحين ينعم الله على قوم فطريقهم الذى يهديهم إليه هو أقوم طريق وأوفقه

وهؤلاء لم ينالوا النعمة فحسب بل هم كذلك « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » هم الذين نالوا النعمة الظاهرة ، ونالوا معها الرضى الباطن ، والهداية إلى الغاية .

وفى ذكر غير المغضوب عليهم ، وذكر « الضالين » إشارة إلى أن الصراط المستقيم هو طريق الذين أنعم الله عليهم — لا ليفتنهم بالنعمة ، فيستحقوا منه الغضب وينتهى أمرهم إلى الضلال ، إنما هم الذين أنعم عليهم لأنه عنهم راض ، ولأنه أراد لهم الهدى بذلك الإنعام .

وهكذا تتساوق المعانى فى هذه السورة القصيرة ، وتتناسق الأغراض ، ويبدو التماسك فى نسجها والاتساق . وتتجلى تلك الخصائص التى تكشف عن بعض أسرار اختيارها ، ليرددها المسلم سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة ، أو ما شاء الله أن يرددها كلما قام للصلاة .



لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى

(٣)

لماذا لم تدوّن السـنة فى عهد الرسول

وهل كتب عنها شىء فى حياته

لا يختلف اثنان من كُتّاب السيرة ، وعلماء السـنة ، وجماهير المسلمين فى أنّ القرآن الكريم قد لقى من عناية الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ما جعله محفوظاً فى الصدور ، ومكتوباً فى الرقاع والسعف والحجارة وغيرها . حتى إذا تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن محفوظاً مرتباً لا ينقصه إلا جمعه فى مصحف واحد . أمّا السنة فلم يكن شأنها كذلك رغم أنها مصدر هام من مصادر التشريع فى عهد الرسول . ولا يختلف أحد فى أنها لم تدوّن تدويناً رسمياً كما دوّن القرآن .

ولعل مرجع ذلك إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم عاش بين الصحابة ثلاثاً وعشرين سنة ؛ فكان تدوين كلماته وأعماله ومعاملاته تدويناً محفوظاً فى السعَف والرقاع من العُسر بمكان ؛ لما يحتاج ذلك إلى تفرغ أناس كثيرين من الصحابة لهذا العمل الشاق ، ومن المعلوم أن الكاتبين كانوا من القلة فى حياة الرسول بحيث يعدون بالأصابع ، وما دام القرآن هو المصدر الأساسى الأول للتشريع ، والمعجزة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليتوفر هؤلاء الكتاب على كتابته دون غيره من السنة ؛ حتى يؤدوه لمن بعدهم محرراً مضبوطاً تاماً لم ينقص منه حرف واحد . وشىء آخر أن العرب لأميتهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم وحدها فيما يودون حفظه واستظهاره ، فالتوفر لحفظ القرآن مع نزوله منجما على آيات ، وسور صغيرة ميسور لهم ، وداعية إلى استذكاره ، والاحتفاظ به فى صدورهم ، فلو دوّنت السنة كما دوّن القرآن وهى واسعة كثيرة النواحى ، شاملة لأعمال الرسول التشريعية ، وأقواله منذ بدء رسالته إلى ن لحق بربه لـلـتزم إكبابهم على حفظ السـ مع حفظ القرآن ،

وفيه من الحرج ما فيه ، عدا عن خوف اختلاط بعض أقوال النبي الموجزة الحكيمة بالقرآن سهواً من غير عمد . وذلك خطر على كتاب الله يفتح باب الشك فيه لأعداء الإسلام مما يتخذونه ثغرة ينفذون منها إلى المسلمين لحملهم على التحلل من أحكامه ، والتفلت من سلطانه . كل ذلك وغيره — مما توسع العلماء فى بيانه — من أسرار عدم تدوين السنة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبهذا نفهم سرّ النهى عن كتابتها الوارد فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكتبوا عنى غير القرآن ، ومن كتب عنى شيئا فليمحه » .

وهذا لا يمنع أن يكون قد كتب فى عصر الرسول شىء من السنة لا على سبيل التدوين الرسمى كما كان يدون القرآن . وهناك آثار صحيحة تدل على أنه قد وقع كتابة شىء من السنة فى العصر النبوى ؛ فقد روى البخارى فى كتاب العلم عن أبى هريرة : أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأُخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فركب راحلته فخطب فقال : « إن الله حبس عن مكة القتل[1] وسُلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، وإنها لم تحل لأحد قبلى ، ولم تحل لأحد بعدى ألا وإنها أحلت لى ساعة من نهار ، وإنها ساعتى هذه ؛ حرام لا يختلى شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، فمن قتل له قتيل فهو بخير النظرين : إما أن يعقل ، وإما أن يقاد أهل القتيل » . فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لى يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : « اكتبوا لأبى شاه » كما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى ملوك عصره ، وأمراء جزيرة العرب كُتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكان يُنفِذ مع بعض أمراء سراياه كتبا ، ويأمرهم ألا يقرأوها إلا بعد أن يجاوزوا موضعا معينا . كما ثبت أن بعض الصحابة كانت لهم صحف يدونون فيها بعض ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم : كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التى كان يسميها بالصادقة ؛ فقد أخرج أحمد والبيهقى فى المدخل عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى إلا عبد الله بن عمرو ؛ فقد كان يكتب ولا أكتب » . وكتابة عبد الله بن عمرو استرعت أنظار بعض الصحابة الذين قالوا : إنك تكتب عن رسول الله كل ما يقول ، ورسول الله قد يغضب فيقول مالا يُتخذ

---

(١) « القتل » أو « الفيل » شك من البخارى .

شرعا عاما فرجع ابن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « اكتب عنى فوالذى نفسى بيده ما خرج من فمى إلا حق » ، وثبت أنه كان عند على رضى الله عنه صحيفة فيها أحكام الدية على العاقلة وغيرها ، كما ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب لبعض عماله كتبا حُدِّدت فيها مقادير الزكاة فى الإبل والغنم .

وقد اختلف العلماء فى التوفيق بين أحاديث النهى عن الكتابة ، وبين هذه الآثار التى تدل على الإذن بها ؛ فالأكثرون على أن النهى منسوخ بالإذن ، ومن قائل بأن النهى خاص بمن لا يؤمن عليه الغرض ، والخلط بين القرآن والسنة ، أمّا الإذن فهو خاص بمن أُمِنَ عليه ذلك . وأعتقد أنه ليس هناك تعارض حقيق بين أحاديث النهى ، وأحاديث الإذن ؛ إذا فهمنا النهى على أنه نهى عن التدوين الرسمى كما كان يدون القرآن ، وأما الإذن فهو سماح بتدوين نصوص من السنة لظروف وملابسات خاصة ، أو سماح لبعض الصحابة الذين كانوا يكتبون السنة لأنفسهم . والتأمل فى نص حديث النهى قد يؤيد هذا الفهم ؛ إذ جاء عاما مخاطبا فيه الصحابة جميعا . ولا يقال إن ذلك يقتضى أن يكون الحكم باقيا على الحرمة ما دام السماح لظروف خاصة ، ولأشخاص معينين ؛ لأننا نقول إن سماح الرسول لعبد الله بن عمرو بكتابة صحيفته ، واستمراره فى الكتابة حتى وفاة الرسول دليل على أن الكتابة مسموح بها فى نظر الرسول إذا لم يكن تدوينا عاما كالقرآن ، ويؤكد الإذن بالكتابة ما جاء فى البخارى عن ابن عباس أنه لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم وجعه قال : « ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده » ، ولكن عمر حال دون ذلك بحجة أن النبى قد غلبه الوجع ، وهذا مما يؤيد الرأى القائل بأن آخر الأمرين كان هو الإذن لا كما ذهب إليه المرحوم الشيخ رشيد رضا من أن الإذن وقع أولا ثم نسخ بالنهى[1].

موقف الصحابة من الحديث بعد وفاة الرسول

قدمنا لك[2] ما رواه أبو داود والترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية زيد بن ثابت : « نضر الله امرأ سمع منى مقالتى فحفظها ووعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » ، وفى حديث آخر : « ألا ليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ[3] » وهكذا أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته بتبليغ السنة

(١) الجزء العاشر من المجلد العاشر من مجلة المنار .

(٢) العدد الثانى من « المسلمون » .

(٣) رواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم عن ابن بكرة ج ١ ص ٤١ .

إلى مَن وراءهم مع التثبت فيما يروون : « كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ماسمع[1] » . فلم يكن بدٌّ من أن يصدع الصحابة بالأمر ، ويبلغوا أمانة الرسول إلى المسلمين ؛ خصوصا وقد تفرقوا فى الأمصار ، وأصبحوا محل عناية التابعين والرحلة إليهم ، فكان التابعون يتتبعون أخبارهم ومواطنهم ، فيرحل إليهم من يرحل على بعد الشقة وعناء الأسفار .

هذا كله كان عاملا قوياً فى انتشار الحديث ، وانتقاله إلى جمهور المسلمين بيد أن الصحابة كانوا متفاوتين فى التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلة وكثرة فمن المقلين : الزبير ، وزيد بن أرقم ، وعمران بن حصين . روى البخارى فى كتاب العلم عن عبد الله بن الزبير أنه قال لأبيه : إنى لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان فقال له : أما أنى لم أفارقه ولكن سمعته يقول : « من كذب علىَّ فليتبوأ مقعده من النار » وروى ابن ماجة فى سننه أن زيد بن أرقم كان يقال له حدثنا فيقول : كبرنا ونسينا ، والحديث عن رسول الله شديد . ويقول السائب بن زيد : صحبت سعد بن مالك من المدينة إلى مكة فما سمعته يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً واحداً ، وكان أنس بن مالك يُتبع الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « أو كما قال » حذراً من الوقوع فى الكذب عليه . فما صنعه الزبير ، وزيد بن أرقم وأمثالهما من المقلين إنما كان خوفا من الوقوع فى خطأ لم يقصدوه ، ويظهر أن ذاكرتهم لم تكن من شأنها أن تسعفهم بإيراد الحديث على لفظه أو وجهه الذى سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان من الاحتياط فى دين الله عندهم ألا يكونوا من المكثرين .

ولقد أضيف إلى هذا رغبة عمر رضى الله عنه ألا يكثروا من التحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام كى لاينشغل الناس بالحديث عن القرآن ؛ والقرآن غض طرى فما أحوج المسلمين إلى حفظه وتناقله ، والتثبت فيه ، والوقوف على دراسته . روى الشعبى عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى صرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال : أتدرون لِمَ مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دَوِىٌّ بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالحديث فتشغلوهم ؛ جودوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وامضوا وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب .

ومن الصحابة من كان يكثر الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، ويستكثر منه أيضاً .

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة .

فأبو هريرة رضى الله عنه كان من أوعية الحديث التى فاضت على المسلمين فملأت بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه صدورهم ومجالسهم ، وعبد الله بن عمرو كان يحدث الناس من صحيفته الصادقة ، وعبد الله بن عباس كان يطلب الحديث عند كبار الصحابة ، ويتحمل فى سبيل ذلك عناء ومشقة . أخرج ابن عبد البر عن ابن شهاب أن ابن عباس قال : كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ؛ ولكنى كنت أذهب إليه فأقيل على بابه حتى يخرج إلى فيحدثنى ، وهكذا لقى فى سبيل الحديث من العناء ما لقى إلى أن استوعب ما عند من لقيهم من الصحابة من حديث فأخذ يبثه غير متزمت ولامقل ، ويظهر أنه أقل من التحديث بعد ذلك حين بدأ الوضع فى الحديث ؛ فقد روى مسلم فى مقدمة صحيحه أن بشير بن كعب جاء إلى ابن عباس فجعل يحدثه فقال له ابن عباس عد لحديث كذا وكذا فعاد له فقال ما أدرى أعرفت حديثى كله ، أم أنكرت حديثى كله وعرفت هذا ؟ فقال ابن عباس إنا كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن يُكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه .

ومهما يكن من إكثار بعض الصحابة التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان ذلك قليلا فى عصرى الشيخين أبى بكر وعمر ؛ إذ كانت خطتهما حمل الصحابة على التثبت فى الحديث من جهة ، وحمل المسلمين على العناية بالقرآن أولا من جهة أخرى . قيل لأبى هريرة : « أكنت تحدث فى زمن عمر هكذا ؟ قال : لو كنت أحدث فى زمن عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخفقته [1] .

وهنا لا بد من التعرض لبحثين يتعلقان بموقف عمر من الحديث ، وموقف غيره كذلك :

الأول : هل حبس عمر أحداً من الصحابة لإكثاره من الحديث ؟

والثانى : هل كان الصحابة يشترطون شروطا لقبول خبر الصحابى ؟

وهذا ماسنعرض له فى العدد القادم إن شاء الله ..

(١) جامع أحكام البيان ٢/١٢١ ، والمخفقة : الدرة أوسوط من خشب « العصا » .

« لا تسبّوا أصحابي »

للأستاذ محمود محمد شاكر

حسبُ امرىء مسلمٍ لله أن يبلغه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبُّوا أصحابي ! لا تسبُّوا أصحابي ! فوالذى نفسى بيده لو أنّ أحدكم أنفقَ مثل أحُد ذهباً ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه » ، حتى يخشع لربّ العالمين ، ويسمع لنبىّ الله ويطيعُ ، فيكفّ غَرْب لسانه وضراوة فكره عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . ثم يعلم علماً لا يشوبه شكٌ ولا ريبةٌ ، أن لا سبيل لأحد من أهل الأرض ، ماضيهم وحاضرهم ، أن يلحق أقلّ أصحابه درجة ، مهما جهد فى عبادته ، ومهما تورّع فى دينه ، ومهما أخلص قلبه من خواطر السوء فى سرّه وعلانيته . ومن أين يشك وكيف يطمعُ ، ورسول الله لا ينطقُ عن هَوًى ، ولا يداهنُ فى دين ، ولا يأمرُ الناس بما يعلم أن الحقّ فى خلافه ، ولا يحدّث بخبر ، ولا ينعتُ أحداً بصفة ، إلا بما علمه ربه وبما نبأه ؟ وربه الذى يقول له ولأصحابه : « وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونْ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ثم يبين صلى الله عليه وسلم عن كتاب ربه فيقول: « خيرُ الناس قَرْنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء قومٌ تسبق شهادةُ أحدهم يمينَه ، ويمينُه شهادته » .

ثم يزيد الأمر بياناً صلى الله عليه وسلم ، فيدل المؤمنين على المنزلة التى أنزلها الله أصحاب محمد رسول الله ، فيقول : « يأتى على الناس زمانٌ ، فيغزو فئامٌ من الناس فيقولون : فيكم مَن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ! فيفتح لهم . ثم يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس فيقال : هل فيكم من صاحبَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ! فيفتح لهم . ثم يأتى على الناس زمانٌ فيغزو فئامٌ من الناس فيقال : هل فيكم من صاحبَ مَن صاحب أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ! فيفتح لهم » . فإذا كان هذا مبلغ صحبة رسول الله ، فأى مسلم يطيق بعد هذا أن يبسط لسانه فى أحد من صحابة محمد رسول الله ؟ وبأى لسان يعتذر

يوم يخاصمونه بين يدى ربهم ؟ وما يقول وقد قامت عليه الحجة من كتاب الله ومن خبر نبيه ؟ وأين يفر امرؤ يومئذ من عذاب ربه ؟

وليس معنى هذا أن أصحاب محمد رسول الله معصومون عصمة الأنبياء ، ولا أنهم لم يخطئوا قط ولم يسيئوا ، فهم لم يدّعوا هذا ، وليس يدّعيه أحدٌ لهم . فهم يخطئون ويصيبون ، ولكنّ الله فضّلهم بصحبة رسوله ، فتأدبوا بما أدّبهم به ، وحرصوا على أن يأتوا من الحق ما استطاعوا ، وذلك حسبهم ، وهو الذى أمروا به ، وكانوا بعدُ توّابين أوّابين كما وصفهم فى محكم كتابه . فإذا أخطأ أحدهم ، فليس يحلُّ لهم ، ولا لأحد ممن بعدهم ، أن يجعل الخطأ ذريعةً إلى سبهم والطعن عليهم . هذا مجمل ما أدبنا به الله ورسوله . بيد أن هذا المجمل أصبح مجهولا مطروحاً عند أكثر من يتصدى لكتابة تاريخ الإسلام من أهل زماننا ، فإذا قرأ أحدهم شيئا فيه مطعنٌ على رجل من أصحاب رسول الله سارع إلى التوغل فى الطعن والسبّ ، بلا تقوى ولا ورع . كلا، بل تراهم ينسوْن كل ما تقضى به الفطرة من التثبت من الأخبار المروية ، على كثرة ما يحيط بها من الريب والشكوك ، ومن الأسباب الداعية إلى الكذب فى الأخبار ، ومن العلل الدافعة إلى وضع الأحاديث المكذوبة على هؤلاء الصحابة .

ولن أضرب المثل بما يكتبه المستشرقون ومن لف لفهم فهم كما نعلم . ولا بأهل الزيغ والضلال والضغينة على أهل الإسلام ؛ كصاحب كتاب الفتنة الكبرى وأشباهه من المؤلفين . بل سآتيك بالمثل من كلام بعض المتحمسين لدين ربهم ، المعلنين بالذبّ عنه والجهاد فى سبيله . لتعلم أن أخلاق المسلم هى الأصل فى تفكيره وفى مناهجه وفى علمه ، وأن سمة الحضارة الوثنية الأوربية ، تنفجر أحياناً فى قلب من لم يحذر ولم يتق ، بكل ضغائن القرن العشرين وبأسوأ سخائم هذه الحضارة المتعدية لحدود الله التى كتب على عباده — مسلمهم وكافرهم — أن لا يتعداها .

أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم أبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وهند بنت عتبة بن ربيعة ، أم معاوية . رضى الله عنهم كيف يتكلم أحد الناس عنهم .

١ — « فلما جاء معاوية ، وصيّر الخلافة الإسلامية مُلكا عضوضاً فى بنى أميـة ، لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وَحْى الجاهلية » ولم يكتفِ بهذا بل شمل بنى أمية جميعاً فقال : « فأمية بصفة عامة لم يَعْمر الإيمان قلوبها وما كان الإسلام لها إلا رداء تخلعه وتلبَسُه حسب المصالح والملابسات » .

٢ — ثم يذكر يزيد بن معاوية بأسوأ الذكر ثم يقول : « وهذا هو « الخليفة » الذى يفرضه معاوية على الناس ، مدفوعاً إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام ؛ دافع العصبية العائلية القبلية . وما هى بكثيرة على معاوية ولا بغريبة عليه . فمعاوية هو ابن أبى سفيان ، وابن هند بنت عتبة ، وهو وريث قومه جميعاً وأشبه شىء بهم فى بُعد روحه عن حقيقة الإسلام . فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية أو بنى أمية ، فهو منه ومنهم برىء » .

٣ — « ولسنا ننكر على معاوية فى سياسة الحكم ابتداعه نظام الوراثة وقهر الناس عليها فحسب ، إنما ننكر عليه أولا وقبل كل شىء إقصاءه العنصر الأخلاقى ، فى صراعه مع على ، وفى سيرته فى الحكم بعد ذلك ، إقصاء كاملا لأول مرة فى تاريخ الإسلام . . . فكانت جريمة معاوية الأولى ، التى حطمت روح الإسلام فى أوائل عهده هى نفى العنصر الأخلاقى من سياسته نفياً باتًّا . ومما ضاعف الجريمة أن هذه الكارثة باكرت الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سُننه الرفيعة . . . ولكى ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صوراً من سياسة الحكم فى العهود المختلفة على أيدى أبى بكر وعمر ، وعلى أيدى عثمان ومروان . ثم على أيدى الملوك من أمية . . ومن بعدهم من بنى العباس ، بعد أن خُنقت روح الإسلام خنقاً على أيدى معاوية وبنى أمية » .

٤ — « ومضى على إلى رحمة ربه ، وجاء معاوية بن هند وابن أبى سفيان ! » (وأنا أستغفر الله من نقل هذا الكلام ، بمثل هذه العبارة النابية فإنه أبشع ما رأيته !) ثم يقول : « فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته ، كانت تقف حاجزاً أمام أمية .. لقد انهار هذا الحاجز ، وانساح ذلك السد ، وارتدت أمية طليقة حرة إلى وراثاتها فى الجاهلية والإسلام . وجاء معاوية ، تعاونه العصبة التى على شاكلته ، وعلى رأسها عمرو بن العاص . قوم تجمعهم المطامع والمآرب ، وتدفعهم المطامح والرغائب ، ولا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير » (وأنا أستغفر الله وأبرأ إليه) . ثم قال : « ولا حاجة بنا للحديث عن معاوية ، فنحن لا نؤرخ له هنا ، وبحسبنا تصرفه فى توريث يزيد الملك ، لنعلم أى رجل هو . ثم بحسبنا سيرة يزيد لنقدر أية جريمة كانت تعيش فى أسلاخ أمية على الإسلام والمسلمين » .

٥ — ثم ينقل خطبة يزعم أنها لمعاوية فى أهل الكوفة بعد الصلح يجىء فيها قول معاوية : « وكل شرط شرطته ، فتحت قدمىّ هاتين » ثم يعقب عليه مستدركا : « والله تعالى يقول : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » والله يقول : « وإن اسْتَنْصَرُوكُم فى الدِّين فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ، إلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ »

فيؤثر الوفاء بالميثاق للمشركين المعاهدين، على نصرة المسلمين لإخوانهم فى الدين . أما معاوية فيخيس بعهده للمسلمين، ويجهر بهذه الكبيرة جهرة المتبجحين !.. إنه من أمية، التى أبت نحيزتها أن تدخل فى حلف الفضول !»

٦ — ثم يذكر خطبة أخرى لمعاوية فى أهل المدينة : « أما بعد، فإنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم » ثم يعلق عليها فيقول : « أجل ماوليها بمحبة منهم . وإنه ليعلم أن الخلافة بيعة الرضى فى دين الإسلام . ولكن ما لمعاوية وهذا الإسلام .. وهو ابن هند وابن أبى سفيان ! » .

٧ — « وأما معاوية بعد علىّ، فقد سار فى سياسة المال سيرته التى ينتفى منها العنصر الأخلاقىّ، فجعله للرشى واللهى وشراء الأمم فى البيعة ليزيد، وما أشبه هذه الأغراض، بجانب مطالب الدولة والأجناد والفتوح بطبيعة الحال . »

٨ — ثم قال شاملا لبنى أمية : « هذا هو الإسلام، على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى، من غلبة أسرة لم تعمرْ روحُ الإسلام نفوسها . فآمنت على حرف حين غَلب الإسلام، وظلّت تحلم بالملك الموروث العضوض حتى نالته، فسارت بالأمر سيرة لا يعرفها الإسلام » .

هذا ما جاء فى ذكر معاوية، وما أضفى الكاتب من ذيوله على بنى أمية، وعلى عمرو بن العاص . وأما ماجاء عن أبى سفيان بن حرب فانظر ماذا يقول :

٩ — « أبو سفيان هو ذلك الرجل الذى لقى الإسلام منه والمسلمون ما حفلت به صفحات التاريخ، والذى لم يسلم إلا وقد تقررت غلبة الإسلام . فهو إسلام الشفة واللسان، لا إيمان القلب والوجدان . وما نفذ الإسلام إلى قلب ذلك الرجل قطّ، فلقد ظلّ يتمنى هزيمة المسلمين ويستبشر لها فى يوم حنين، وفى قتال المسلمين والروم فيما بعد، بينما يتظاهر بالإسلام . ولقد ظلت العصبية الجاهلية تسيطر على فؤاده . . . وقد كان أبوسفيان يحقد على الإسلام والمسلمين، فما تعرض فرصة للفتنة إلا انتهزها .. »

١٠ — « ولقد كان أبو سفيان يحلم بملك وراثى فى بنى أمية منذ تولى الخلافة عثمان فهو يقول : « يابنى أمية . . . تلقفوها تلقف الكرة، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة ! » وما كان يتصوّر حكم المسلمين إلا ملكا حتى فى أيام محمد، (وأظن أنا أنه من الأدب أن أقول : صلى الله عليه وسلم) ، فقد وقف ينظر إلى جيوش الإسلام يوم فتح مكة، ويقول

للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما » ، فلما قال له العباس . إنها النبوّة ! قال : نعم إذن ! . . .

« نعم إذن ! وإنها لكلمة يسمعها بأذنه فلا يفقهها قلبه ، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنى الملك والسلطان » .

ثم يقول عن هند بنت عتبة أم معاوية .

١١ — « ذلك أبو معاوية . فأما أمه هند بنت عتبة ، فهى تلك التى وقفت يوم أحد ، تلغ فى الدم إذ تنهش كبد حمزة كاللبؤة المتوحشة ، لايشفع لها فى هذه الفعلة الشنيعة حق الثأر على حمزة ، فقد كان قد مات . وهى التى وقفت بعد إسلام زوجها كرها بعد اذ تقررت غلبة الإسلام تصيح . « اقتلوا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه . قُبِّح من طليعة قوم ! هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟ » .

* * *

هؤلاء أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يذكرهم كاتب مسلم ، بمثل هذه العبارات الغربية النابية ! بل زاد ، فلم يعصم كثرة بنى أمية من قلمه ، فطرح عليهم كلّ ما استطاع من صفات تجعلهم جملة واحدة ، برآء من دين الله ؛ ينافقون فى إسلامهم ، وينفون من حياتهم كل عنصر أخلاقى ! كما سماه . وأنا لن أناقش الآن هذا المنهج التاريخى ، فإن كلّ مدّع يستطيع أن يقول . هذا منهجى ، وهذه دراستى . بل غاية ما أنا فاعل أن أنظر كيف كان أهل هذا الدين ، ينظرون الى هؤلاء الأربعة بأعيانهم ، وكيف كانوا — هؤلاء الأربعة — عند من عاصرهم ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم . وأيضاً فإنى لن أحقق فى هذه الكلمة فساد ما بُنى عليه الحكم التاريخىّ العجيبُ ، الذى استحدثه لنا هذا الكاتب ، بل أدعه إلى حينه .

فمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، أسلم عام القضية ؛ ولقى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً ؛ وكتم إسلامه من أبيه وأمه ولما جاءت الردة الكبرى ؛ خرج معاوية فى هذه القلة المؤمنة التى قاتلت المرتدّين ؛ فلما استقر أمرُ الإسلام وسير أبو بكر الجيوش إلى الشام سار معاوية مع أخيه يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنه . فلما مات يزيد فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى سفيان . أحسن الله عزاءك فى يزيد . فقال أبو سفيان . من ولّيت مكانه ؟ قال . أخاه معاوية . قال :

وصلتك رحم يا أمير المؤمنين . وبقى معاوية واليا لعمر على عمل دمشق . ثم ولاه عثمان الشام كلها ؛ حتى جاءت فتنة مقتل عثمان ؛ فولى معاوية دم عثمان لقرابته ؛ ثم كان بينه وبين على ما كان .

ويروى البخارى . (٥ : ٢٨) أن معاوية أوتر بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس فقال : دعه فإنه صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال فى خبر آخر : هل لك فى أمير المؤمنين معاوية فإنه أوتر بواحـدة فقال ابن عباس : إنه فقيه . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ١٠٢) عن مجاهد وعطاء ؛ عن ابن عباس أن معاوية أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قصر شعره بمشقص[1] فقلت لابن عباس . مابلغنا هذا الأمر إلا عن معاوية ! فقال . ما كان معاوية على رسول الله صلى الله عليه وسلم متهماً . وعن أبى الدرداء : ما رأيت أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من أميركم هذا يعنى معاوية (مجمع الزوائد ٩ : ٣٥٧) . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ١٠١) عن أبى أمية عمرو بن يحيى بن سـعيد عن جده أن معاوية أخذ الإداوة[2] بعد أبى هريرة يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، واشتكى أبوهريرة ، فبينا هو يوضىء رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع رأسه إليه مرة أو مرتين فقال : يا معاوية ؛ إن وليت أمراً فاتق الله عزّ وجل واعدل . قال معـاوية : فما زلت أظن أنى مبتلى بعمل لقول النبى صلى الله عليه وسلم حتى ابـتليتُ . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ١٢٧) عن العرباض بن سارية السلمى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعونا إلى السحور فى شهر رمضان : هلموا إلى الغداء المبـارك ! ثم سمعته يقول : اللهمّ علم معاوية الـكتاب والحساب وقِـه العذاب . وروى أحمد فى مسنده (٤ : ٢١٦) عن عبدالرحمن ابن أبى عميرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر معاوية فقال : « اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به » .

هذا بعض ما قيل فى معاوية رضى الله عنه ، وفى دينه وإسلامه . فإن كان هذا الكاتب قد عرف واستيقن أن الروايات المتلقّفة من أطراف الـكتب ، تنقض هذا نقضا حتى يقول إنّ الإسلام برىء منه . فهو وما عرف . وإن كان يعلم أنه أحسنُ نظراً ومعرفة بقريش من أبى بكر حين ولّى يزيد بن أبى سفيان ، وهو من بنى أمية ، وأنفذ

(١) المشقص : نصل طويل عريض (المقمس) .
(٢) الإداوة : إناء من جلد صغير كالقربة

بصراً من عُمرَ حين ولىّ معاوية . فهو وماعلم ! وإن كان يعلم أنّ معاوية لم يُقاتل فى حروب الردّة ، إلاّ وهو يضمر النفاق والغدر ، فله ما علم . وإن كان يرى ما هوأعظمُ من ذلك ؛ أنه أعرف بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من رسول الله الذى كان يأتيه الخبر من السماء بأسماء المنافقين بأعيانهم . فذلك ما أعيذه منهُ أن يعتقده أو يقوله . ولكن لينظر فرق ما بين كلامه وكلام أصحاب رسول الله عن رجل آخر من أصحابه ، ثم ليقطع لنَفسه ما شاء من رحمة الله أو من عذابه . ولينظر أيهما أقوى برهاناً فى الرواية هذا الذى حدثنا به أئمة ديننا ، أم ما انضمَّت عليه دفَّتا كتاب من عُرْض كتب التاريخ ، كما يزعمون . ولينظر لنفسه حتى يرجّح رواية على رواية ، وحديثاً على حديث ، وخبراً على خبر ، وليعلم أن الله تعالى أدّب المسلمين أدباً لم يزالوا عليه منذ كانت لدين الله الغلبة ، حتى ضرب الله على أهل الإسلام الذّلة بمعاصيهم وخروجهم عن حدّ دينهم ، واتباعهم الأمم فى أخلاقها وفى فكرها وفى تصورّها للحياة الإنسانية . يقول ربُّنا سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » ويقول : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا » . ولينظر أنّى له أن يعرف أن معاوية كان يعمل « بوحى الجاهلية لا الإسلام » ، وأنه بعيد الروح عن حقيقة الإسلام ، وأن الإسلام لم يَعمُر قلبه ، وأنه خنق روح الإسلام هو وبنو أبيه ، وأنه هو وعمرو بن العاص ومن على شاكلتهم ، لا يمسكهم خُلق ولا دين ولا ضمير ، وأن فى أسلاخ معاوية وبنى أمية جرثمة أى جرثمة على الإسلام والمسلمين ، وأنه يخيس بالعَهد ويجهر بالكبيرة جهرة المتبجحين وأنه ما لمعاوية وهذا الإسلام ؟ وأنه ينفى العنصر الأخلاقى من سيرته ويجعل مال الله للرشى واللهى وشراء الذمم ، وأنه هو وبنو أمية آمنوا على حرف حين غلب الإسلام .

***

أما أبو سفيان رضى الله عنه ، فقد أسلم ليلة الفتح ، وأعطاه رسول الله من غنائم حنين كما أعطى سائر المؤلفة قلوبهم فقال له : والله إنك لكريم فداك أبى وأمى ، والله لقد حاربتك فلنعم المحارب كنت ، ولقد سالمتك فنعم المسالم أنت ، جزاك الله خيراً . ثم شهد الطائف مع رسول الله ، وفقئت عينه فى القتال ، وولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم نجران ، ورسول الله لا يولى منافقاً على المسلمين ، وشهد اليرموك ، وكان هو الذى يحرض الناس ويحثهم على القتال . وقد ذكر الكاتب فيما استدلّ به على إبطان أبى سفيان

النفاق والكفر أنه كان يستبشر بهزيمة المسلمين فى يوم حنين ، وفى قتال المسلمين والروم فيما بعد ، وهذا باطل مكذوب . وسأذكر بعد تفصيل ذلك . أما قول أبى سفيان للعباس « لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما ! » فقال العباس إنها النبوة ! فقال أبو سفيان : فنعم إذن . فهذا خبر طويل فى فتح مكة ، قبل إسلامه ، وكانت هذه الكلمة « نعم إذن » أول إيذان باستجابته لداعى الله ، فأسلم رضى الله عنه وليست كما أولها الكاتب : « نعم إذن . وإنها كلمة يسمعها بأذنه فلا يفقهها قلبه ، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنى الملك والسلطان » ، إلاّ أن يكون الله كشف له ما لم يكشف للعباس ولا لأبى بكر ولا لعمر ، ولا لأصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار . وأعوذ بالله من أن أقول ما لم يكشف لرسول الله ونبيه صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يا رسول الله ثلاثاً أعطنيهن . قال : نعم . قال : تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما قاتلتُ المسلمين . قال : نعم . قال : ومعاوية تجعلُه كاتباً بين يديك . قال : نعم . وذكر الثالثة ، وهو أنه أراد أن يزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته الأخرى عزّة بنت أبى سفيان ، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة فقال : « إن ذلك لا يحلّ لى » .

وأما هند بنت عتبة أم معاوية رضى الله عنهما فقد روى عن عبد الله بن الزبير (ابن سعد ٨ : ١٧١) قال : لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ونساء معها وأتين رسول الله وهو بالأبطح فبايعنه فتكلمت هند فقالت : يا رسول الله ! الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه . لتنفعنى رحمُك يا محمد ! إنى امرأةٌ مؤمنة بالله مصدقةٌ برسوله . ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال رسول الله : مرحباً بك . فقالت : والله ما كان على الأرض أهل خباء أحبّ إلىّ من أن يذلّوا من خبائك ، ولقد أصبحتُ وما على الأرض أهل خباء أحبّ إلىّ من أن يعزّوا من خبائك . فقال رسول الله : وزيادة . . . . . قال محمد بن عمر الواقدى : لما أسلمتْ هندُ جعلتْ تضربُ صنماً فى بيتها بالقدوم حتى فلّذته فلذة فلذة وهى تقول : كنّا منك فى غرور . وروى البخارى هذا الخبر عن أم المؤمنين عائشة (٥ : ٤٠) .

فهل يعلم عالمٌ أن إسلام أبى سفيان وهند كان نفاقاً وكذباً وضغينة ؟ لا أدرى . ولكن أئمتنا من أهل هذا الدين لم يطعنوا فيهم ، وارتضاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتضى إسلامهم . وأمّا ما كان من شأن الجاهلية ، فقلّ رجلٌ أو امرأةٌ من المسلمين لم يكنْ له فى جاهليته مثل ما فعل أبوسفيان ، أو شبيهٌ بما يروى عن هندٍ إن صحّ .

وأما عمرو بن العاص ، فقد أسلم عام خيبر قدم مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم أمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية إلى ذات السلاسل يدعو بَليّاً إلى الإسلام ، ثم استعمله رسول الله على عمان فلم يزل والياً عليها إلى أن توفىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أقره عليها أبو بكر رضى الله عنه ثم استعمله عمر . وروى الإمامُ أحمد فى مسنده (٢ : ٣٢٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤) من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ابنا العاص مؤمنان » يعنى هشاماً وعمراً . وروى الترمذى وأحمد فى مسنده (٤ : ١٥٥) عن عقبة بن عامر الجهنى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص . وروى أحمد فى مسنده (١ : ١٦١) عن طلحة بن عبيد الله قال : ألا أخبركم عن رسول الله بشىء ؟ ألا إنى سمعته يقول : عمرو بن العاص من صالحى قريش . ونعم أهل البيت أبو عبد الله ، وأم عبد الله ، وعبد الله .

فإذا كان جهاد عمرو ، وشهادة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، وتولية رسول الله ثم أبى بكر ثم عمر ، لا تدل على شىء من فضل عمرو بن العاص ، ولا تدل على نفى النفاق فى دين الله عنه ، فلا ندرى بعد ما الذى ينفع عمراً فى دنياه وآخرته ؟ ولست أتصدى هنا لتزييف ما كتبه الكاتب من جهة التاريخ ، ولا من جهة المنهاج ، ولكنى أردت كما قلت أن أبين أن الأصل فى ديننا هو تقوى الله وتصديق خبر رسول الله وأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا لعانين ولا طعانين ولا أهل إفحاش ، ولا أصحاب جرأة وتهجم على غيب الضمائر . وأن هذا الذى كانوا عليه أصل لا يمكن الخروج منه ، لا بحجة التاريخ ، ولا بحجة النظر فى أعمال السابقين للعبرة واتقاء ما وقعوا فيه من الخطأ .

ولو صح كل ما يذكر مما اعتمد عليه الكاتب فى تمييز صفات هؤلاء الأربعة ، وصفة بنى أمية عامة ، لكان طريق أهل الإسلام أن يحملوه على الخطأ فى الاجتهاد من الصحابى المخطىء ، ولا يدفعهم داء العصر أن يوغلوا من أجل خبر أو خبرين فى نفى الدين والخلق والضمير عن قوم هم لقرب زمانهم وصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أولى أهل الإسلام ، بأن يعرفوا حق الله وحق رسوله ، وأن يعلموا من دين الله مالم يعلمه مجترىء عليهم طعان فيهم .

وأختم كلمتى هذه بقول النووى فى شرح مسلم (١٦ : ٩٣) « اعلم أن سبّ الصحابة رضى الله عنهم حرام من فواحش المحرمات ، سواء ، من لابس الفتن منهم وغيره ،

لأنهم مجتهدون فى تلك الحروب متأولون . وقال القاضى : سب أحدهم من المعاصى الكبائر . ومذهبنا ومذهب الجمهور أن يعزر ولا يقتل . وقال بعض المالكية يقتل » .

وأسدى النصيحة لمن كتب هذا وشبهه أن يبرأ إلى الله علانية مما كتب وأن يتوب توبة المؤمنين مما فرط منه ، وأن ينزه لسانه ، ويعصم نفسه ، ويطهر قلبه ، وأن يدعو بدعاء أهل الإيمان « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » .

من أجل هذا أقول : إن خلق الإسلام ، هو أصل كل منهاج فى العلم والفهم ، سواء كان العلم تاريخاً أو أدباً أو اجتماعاً أو سياسة . وإلا فنحن صائرون إلى الخروج عن هذا الدين ، وصائرون إلى تهديم ما بناه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى جعل تاريخ الإسلام حشداً من الأكاذيب الملفقة ، والأهواء المتناقضة ، والعبث بكل شىء شريف ورثتنا إياه رحمة الله لهم وفتح الله عليهم ، ورضاه عن أعمالهم الصالحة ، ومغفرته لهم ما أساءوا رضى الله عنهم ، وغفر لهم ، وأثابهم بما جاهدوا وصبروا ، وعلموا وعلّموا . وأستغفر الله وأتوب إليه .

طلب الدراهم من الحجارة !

قال أبو معاوية : لقد رأيتنى أنضح أول النهار ، وأضرب آخر النهار على بطنى بالمعول . فقيل له : لقد لقيت مؤونة ! قال : أجل ، إنا طلبنا الدراهم من أيدى الرجال ومن الحجارة ، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا .

أخلاق..

« ... لست أدعو يا صاحبي إلى صومعة ترتج دون الدنيا وراءها الأبواب ... فتلك عزلة الناسك الذى أهمته نفسه من دون الناس ، ففر بها ينشد لها وحدها الخلاص ... ولو أصبح أهل الخير كلهم نساكا لخلصت الحياة الدنيا للشياطين ، ولامتد إعصار الشر إلى صوامع نسكهم فدار بها وبهم كما يهوى ... « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره » :

وإنما أردت أن نأخذ الأمور من أولها ، وأن نكون صادقين صدق الذين أسلموا فى حجر النبوة أول مرة ... كان أحدهم يستمع إلى الدعوة فى كلمات معدودات ليؤمن بها ، ويعطيها العهد والموثق أن يعيش لها ... ثم كانت آى السماء تترى بما يفطم النفس عن شهواتها ، ويخرجها على المألوف من عاداتها ، فتجد هذا المؤمن الجديد (محرر العاطفة) لأمرها لا يأسره أمر عنها ، منطلق الروح إلى مرضاة الله بها لا يفتنه عن ذلك هوى ولا شهوة .

حين بلغ الأولون هذا الصدق ، وتحرروا لله من كل شىء ، وجدت كلمة الله (فيهم) علمها الخافق فى الناس « وكانوا أحق بها وأهلها » ، وعاشت بهم دعوة سافرة ، تبصر (بعيونهم) ، وتتحدث (بألسنتهم) ، وتزلزل ما حواليها (بأخلاقهم) ، وتضرب ضربتها (بأيديهم) : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » .

وكلمة الله يا صاحبي كلمة عالية ، والدعوة إليها دعوة إلى خلقها العالى : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ؛ وهذا الخلق وحده هو صلة النسب بين أصحابها ، وهو وحده آية صدقهم وحقيقة كرامتهم وإن برقت السيوف فى أيديهم وأوتوا الدنيا بحذافيرها ... لقد وقف (رسول الله) صلى الله عليه وسلم يخطب (جند الله) ليلة بدر فلم يكن إلا أن قال : « أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده ، به يذكرون وبه يتفاضلون وإنكم قد أصبحتم (بمنزل الحق) لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه ... »

هذه يا صاحبي خطبة القتال فى (معركة الإسلام الأولى) ، ويجب أن تظل خطبة القتال فى كل معركة للإسلام من بعد ، إلا أن تكون قد صرفتنا عن (الإسلام) الصوارف ، أو اختلط الأمر علينا فبعض أمرنا مسلم وبعضه غير مسلم ... وهذا هو الذى خشيت ولا أزال أخشى ... فإن سبيل الإسلام واحدة ، وسبل الشر متعددة : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » !

يا جند الله ! أرهفوا أسماعكم لكلمة الله وحدها — وتميزوا بأخلاقكم حتى لا يميزكم الناس إلا بها ... واجعلوا سراكم على حداء الوحى وحده ، ولا تذهلنكم عن نوره الهادى بروق الليلة الشاتية ! .

الرسالات الإلهية والعقل الإنسانى

لفضيلة الأستاذ الشيخ صادق إبراهيم عرجون

شيخ معهد دسوق الدينى

مكان الرسالات الإلهية من الحياة مكان العقل الإنسانى من أفراد البشر ، والعقل هو المرشد الأول للانسان ، يهديه إلى سواء الطريق ، وينيرله ظلمات الوجود ، ويفتح أمامه مغاليق الكون ، ويسدده فى مسيره ضاربا فى بيداء الزمن حتى يقضى ماقدر له من بقاء .

وعلى قدر استعداده الفطرى يكون كسبه من تجاريب الحياة ، وعلى قدر ما يكسبه من تلك التجاريب تكون فائدته ، وعلى قدر هذه الفائدة تكون مكانة الفرد فى الجماعة ومكانه منها ، ومن ثم يتدخل العقل بوساطة الفرد فى إرشاد الجماعة وهدايتها وتسديدها والسمو بها صعدا فى مدارج الرقى والكمال .

وإذا كانت الحياة لم تعرف حدًّا لرقى الفرد فى الجماعة البشرية ينتهى إليه فأحرى ألا يكون للجماعة نفسها حد تقف عنده فى رقيها ؛ فالحياة متجددة ، والمعارف الإنسانية متزايدة .

والعقل البشرى دائب العمل ، وخزائن الكون لاتزال مغلقة ، وأسراره مابرحت محجبة ، وحقائقه ما فتئت مجهولة .

وكيف يقف رقى الفرد أو الجماعة عند حد ؛ ومهمة العقل فى الحياة هى كشف تلك الأسرار الكونية ، ومعرفة حقائق الوجود واستخدامها فى إفادة الإنسانية ؟ ومن الغرور العقلى أن يزعم إنسان أنه وصل إلى درجة من المعارف والعلم بحقائق الكون وأسرار الوجود تقربه من الكمال المقدور للبشرية . فالمجهول من تلك الأسرار وهذه الحقائق لايزال أعظم بكثير جداً مما عرف . والذى عرف لايزال الكثير منه مستخدما فى الحياة على غير جهته التى تفيد منها الحياة . فالجهاد أمام العقل واسع المدى فسيح الجنبات .

بيد أن هذه المعارف العقلية التى لا تنتهى عند حد فى الأفراد والجماعات هى فى الواقع المشهود محدودة المنزع ، لا تتعدى مشاهد الوجود ومظاهر الكون .

وهنا يأتى دور من أدوار الرسالات الإلهية فى قيادة العقل إلى مجاهل الطبيعة

ومطبوعها ومداخل الوجود ، وبواطن الحياة . بل إلى ما وراء الطبيعة وإلى مافوقها؛ إلى الخالق جل شأنه ، وإلى عظيم قدرته وباسط سلطانه ، وبالغ حكمته ، وواسع علمه ، وهيمنة إرادته ، وإلى الكون وما فيه من أسرار وآيات ودلائل تدل — مما اشتملت عليه من نظام متماسك وقوى مترابطة وسنن متوافقة ، ومنافع متتابعة — على فضل الله ورحمته ولطفه وإحسانه وجوده وقهره وكبريائه ولطائف تدبيره .

وهذا مجال تنبيه وإرشاد تتجه فيه الرسالات الإلهية إلى مخاطبة العقل لتوجهه إلى تعرف جلال الكون وعظمة الوجود ، وخطر الحياة ليقف منها على وشائج التكوين والأبداع التى تصل المخلوق بالخالق وتربط بين أجزاء الوجود ، وتكشف عما طوى فيها من منافع واستجابات لرغبات الإنسان المادية والروحية .

وكلما اتسعت معارف العقل من حقائق الكون ازدادت استجابات الحياة له وقوى سلطانه فى تسخير قوى الطبيعة فيما يفيد النوع الإنسانى ويُرقى عناصره ويدعّم قواه ويهىء أمامه الفرص للتغلب على احتمال أعباء الحياة فى ثقة واطمئنان .

وليس العقل الإنسانى بمعصوم من الزلل والخطأ ، بل ربما كان من الحق أن يقال إنه كثير الخطأ والزلل ، ولا سيما إذا ضعف أمام الغرائز والقوى الحيوانية واستجاب لدواعيها ، وخضع لسلطانها فإنه حينئذ يصبح أداة طيعة لهوى تلك الغرائز وعبداً لشهواتها تتحكم فيه وتوجهه فى طريق أغراضها وتصبح معارفه وسيلة من وسائلها فى تلوين الحياة كما تشتهى وتريد .

وتاريخ الحياة والأحياء يدل على أن سلطان الغريزة كان أقوى فى الأفراد والجماعات من سلطان العقل ، ويدل على أن الحياة أسرع استجابة لنداء الغريزة من منطق العقل وأسلس قياداً فى يد الغريزة منها فى يد العقل ، والغرائز فى الإنسان شبيه بعضها ببعض فى مطالبها وغاياتها ، ولكنها تختلف فى الأفراد قوة وضعفاً ، وظهوراً وكموناً ، وليس العقل الإنسانى على هذا الغرار فى أفراد الإنسان ، فهو مختلف فيهم أشد الاختلاف ، وقلما يتفق عقل وعقل ، فاتفاق الغرائز فى الغايات يكسبها قوة فى مطالبها وتنفيذ أغراضها ، واختلاف العقول يوهن من سلطان العقل على الغرائز ، والغرائز منافذ للقوى المادية تتنفس منها ، ومن ثمّ تراها تنشط فى تنفيذ رغائب الجسد ، وتحاول أن توجه قوى الحياة — حتى العليا منها — إلى مقاصد مادية ، لا وزن عندها للقيم الخلقية من العدل والرحمة والإيثار إلا إذا كانت وسيلة لنفع مادى وقضاء شهوة جسدية ،

فالظلم والقسوة والأثرة فى لغة الغرائز ومنطق المادة الصماء تســاوى العدل والرحمة والإيثار فى كثير من الأحايين والأوقات .

فالغرائز إذا انطلقت على سجاياها وتغلبت على العقل كيّفت أعمال الأفراد والجماعات على حسب ميولها وهواها ، وخلعت على تصرفات الأشخاص والأشياء نعوتا من لغتها حتى تصبح القوة هى الميزان الأعلى فى شرعة الحياة ، ولا فرق بين أن يكون هذا الميزان منصوباً على حشائش الأحراش والأدغال وعلى أبواب الكهوف والغيران ، أوموضوعا على بساط من سندس الحضارة الزائفة الملوثة بدماء الضعفاء .

وهنا يأتى دور آخر للرسالات الإلهية هو دور إيقاظ العقل من ذهول سطوة الغرائز وإفساح المجال أمامه لتنظيم رغائبها فى صورة تخضعها لموازين الأخلاق ، وإعطاء الفضائل قيمتها فى الحياة ووضع الرذائل فى مواضعها منها حتى تقاس كل فضيلة أو رذيلة فى أعمال الأفراد والجماعات بمقياسها العادل الذى لايعرف الغش والخداع .

فالدور الأول للرسالات الإلهية دورقيادة وتعليم ، ومجالها فى هذا الدور هوالحقائق الكلية والمعارف العليا ، فهى التى تنبئ عن الغيب وتكشف عن حقائقه فى صور وأمثال تقربها إلى الواقع المشهود حتى تكون دانية إلى مجال العقل ومدركاته وهى التى تتحدث عن الخالق ونعوت كماله ، وعن فيض الحياة من خزائن رحمته ، وعن عوالم السماء والأرواح ، وعن الوحى والنبوة ، وعن نظام الكون وقوانين ترابطه ، وعن الحياة الأخرى وما فيها من ثواب وعقاب. ولاسبيل للعقل وحده إلى إدراك هذه الحقائق إدراكا يتجاوب صداه مع الواقع الغيبى فى هذا المجال ؛ لأن الغيب محجوب عن الحس ، والحس بأدواته المادية هو المشكاة التى يستضىء بمصباحها العقل ، فيهتدى إلى أوليات من الحقائق يحمل عليها مثيلاتها بضرب من القياس والتشبيه ، ومن هذه الحقائق تتولد القضايا العقلية المنتزعة من الوجود المشهود انتزاعا مباشراً أو غير مباشر .

فالعقل الإنسانى فى هذا الدور يجب أن يكون خاضعا للرسالات الإلهية ، آخذا عنها وهى التى تمده وترشده وتهديه ، فإذا استجاب لها أمن العثار والزلل وإذا تأبى عليها وقع فى أغلال الغرائز ، وانقلب عمله إلى استجابات مادية تصب المعارف العليا فى قوالب وثنية تعتمد على التشبيه والتصوير ؛ وتاريخ الفلسفات والأديان ملىء بالشواهد الصادقة على ذلك .

أما الدور الثانى للرسالات الإلهية فهو دور مؤاخاة العقل ومظاهرته ؛ حتى يتغلب

على جموح الغرائز ويكفكف من حدتها ، ويطامن من غرورها ، ويقلل من اندفاعها ويوجهها وجهة صالحة دون كبت يميتها أو انطلاق يفسدها .

ومجال هذا الدور هو الحياة الواقعية التي يحياها الأفراد والجماعات ، وتحديد علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالجماعة ، بل علاقة الفرد والجماعة بالحياة والأحياء وتنظيم هذه العلاقات على أسس من العدل تعطى لكل ذى حق حقه وتشيع بين الأحياء الثقة والاطمئنان والتعاطف والتواسى والمحبة والأخاء .

والعقل الإنسانى فى هذا الدور يجب أن يكون هو المسيطر على الغرائز ، يقودها بحكمته ويوجهها بسياسته ، والرسالات الإلهية هى المرشد العليم ، والمستشار الأمين ، والناصح الحكيم ، وعلى ضوء إرشادها ونصحها ومشورتها يسير العقل فى طريقه مؤديا واجبه على أكمل وجه فى الحياة .

ولقد مرت الإنسانية بأطوار متعددة اختلفت عليها فى تلك الأطوار الرسالات الإلهية فكانت فيها معالم للتاريخ على تلك الأطوار ، وكانت كل رسالة فى الغالب مبدأ لطور ونهاية لآخر ، وقد احتفظت تلك الرسالات بخصائص ومميزات هى فى الواقع خصائص ومميزات الأطوار التى سايرتها . ومن تلك الخصائص يعرف نصيب العقل الإنسانى من تلك الأطوار ؛ فهو مولود مع الإنسانية وخاضع لما تخضع له من حكم التدرج فى طريق الاكمال .

وكما مرت الإنسانية فى مرحلة الطفولة الغريرة محكومة بالغرائز المنطلقة مرّ معها العقل الإنسانى فى هذه المرحلة منطلقا مع الغرائز يفتح لها أبواب المادية المجنونة الجائعة وجاءت الرسالات الإلهية فى هذا الطور تومئ إلى الحقائق العليا ولا تفصح ، وترمز ولا تصرح تمشيا مع طاقة الإنسانية الساذجة ، وحالة الطفولة التى يمر العقل فى مرحلتها فى هذا الطور من أطوار التاريخ البشرى .

واستعراض الصور الجدلية التى يقصها التاريخ ، وتحدثنا بها كتب الرسالات الإلهية عن أوائل الأنبياء ومتقدميهم فى الزمن : كنوح وهود وصالح مع أممهم تدلنا على أن العقل البشرى وقتئذ كان مدثراً فى مهاد الطفولة محاطا بالغرائز .

وكان هؤلاء الرسل الكرام ممن قص الله علينا سيرتهم قد ضاقوا ذرعا بهذه البلادة العقلية .

وذلك التعبد الذليل للغرائز العمياء التى تستلهم المادة فى أغراضها وتستوحى

الأرض فى مطالها ، وتتصام عن صوت السماء حتى إذا استيأسوا وظنوا أن منافذ الأمل فى إيقاظ العقل قد سدت ، وأبواب الرجاء فى تخليصه من سيطرة الغرائز وسلطان الطين قد أقفلت ، وأن رواسب الطبيعة الكثيفة عـدَت على أوائل الفطرة النقية فمسختها الحادا لا يفيء إلى إيمان ، وسرى دم الآباء والأجداد فى شرايين الأبناء والأحفاد ، تبينا للحكمة الإلهية فى اعتقاب داء العقول لمظاهرها فى الأفراد حتى يصبح ذلك الداء العقيم هو داء الجماعة العصى ، وتحقيقا للوراثة الروحية المنحدرة من الأصول إلى الفروع طلبوا التطهير العام والافناء المستأصل إيذانا بطور جديد من أطوار الإنسانية يتجدد به ميلادها ، وتتجدد به بذرة الانبات لجيل جديد لم تفسده أوضار التقليد الأبله ، ويحمل عقلا شب عن الطوق ، وتهيأ للتغلب على طراءة الطفولة والتفلت من أغلال الغرائز ونير المادية واستعد لفهم لغة الأرواح وأحاديثها عن عوالم الغيب وموازين الأخلاق ، فكانت النهاية التى لا بد منها (وقال نوح : ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) واستجاب الله ومضى القدر ، وتمت النهاية واستفتحت الحياة طورا جديداً كان فيه الإنسان قد فتح عينيه على نجوم السماء وآياتها فأخذ بريقها بعقله ، فألق إليها بيديه وألّهها وتعبّد لها ، فجاءت إليه رسالة ابراهيم عليه السلام تخاطبه متدرجة به فى مرحلة المعارف العليا لتقوده — مستعينة بالحس الذى كان لا يزال له المكان الأول فى مدركاته — إلى آفاق الحقائق الكلية وعوالم التجريد ، وقد صور لنا القرآن الكريم ذلك أبدع وأوجز تصوير فى قوله تعالى : (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون) .

الكواكب الزاهرة والقمر المنير فى دجى الليل ، والشمس المشرقة هى أول ما يأخذ بأبصار المقيدين بأغلال الحس والمشاهدة ، وأول ما يلفت نظرهم فى عوالم السماء ، وهى كائنات فوق عالم الطين ، وعوالم الأرض ، لها فيها آثارها ، ولها عليها جلالها وقوتها ، لكنها تأفل وتغيب عن الحس فيذهب أثرها ، وتمحى قوتها ويتبدد جلالها الذى يبهر الحس . والربوبية كمال أزلى لا يجوز عليها الأفول ولا يعتريها التغيير ، بل يجب أن تكون مظاهر وجودها على الكون سابغة وسلطانها على الخليقة مبسوطا تمنح كل موجود عناصر وجوده وتعطيه مقومات حياته ؛ إليها وحدها يكون التطامن

والخضوع ، والتعبد والخشوع (إنى وجَّهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) .

ولقد كان للعقل الإنسانى فى هذا الطور من أطوار الحياة ومضات ، إذا نبهته الرسالة الإلهية تنبه وأشرق بنور الحق من خلال تلك الومضات ولكن فى سرعة خاطفة ، وإذا غلبت عليه كثافة الغرائز المتحكمة نكص على عقبيه وعاد كأن لم يبصر من الحق شيئاً ، وهذا ما صوره القرآن الكريم أبرع تصوير فى هذه المحاورة بين منطق الحق والإيمان على لسان الرسالة الإلهية ، وبين منطق الضلالة والحيرة على لسان عبيد الغرائز الغمياء ، فى قوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده ... إلى قوله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) وهو تصوير يمثل مغالبة الطبيعة الحالكة للعقل الحبيس مع قارعات الحجج الإلهية ، وداويات النذر لم تجد من العقل إلا يقظة المغلوب ؛ فلم يبق للرسالة الإلهية إلا الأسف الحزين : (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون)

كان تعبد العقل للغرائز البلهاء فى أمة (نوح) عليه السلام تعبدا شاملا لم يترك للعقل منفذا ينظر منه للحياة غير منافذ تلك الغرائز المادية المظلمة ، فكان جزاؤها الفناء العام تحقيقا لحكمة التطهير والوقاية من داء البلادة الوراثية ، وكانت الإنسانية على عهد إبراهيم عليه السلام قد استقبلت من أمر العقل عقلا ناشئا لم ينضج ولم يتحرر تحررا منطلقا ، فكان إذا كشفت له الرسالة الإلهية الغطاء أبصر إبصار الأرمد ، ثم عاد إلى مكانه حسيرا يتطلع إلى نور الهداية الذى ظل يهاديه ويواصله فى صور متعددة ومن هنا يلحظ المتأمل فى تاريخ الرسالات الإلهية أن هذا الطور من أطوار الإنسانية كان أحظى أطوارها بمطالع الرسالات تمكينا للأسباب والدوافع من إنضاج الفطرة فى دور مراهقة العقل وتعبده للنزوات المادية فى أشكالها المختلفة ؛ حتى يتهيأ العقل للانطلاق من سجن الغرائز بالغاً رشده ناظراً إلى السماء وعوالمها ، قادرا على إدراك المعارف العليا من عالم الغيب والنبوات ، والوحى والحياة الآخرة والأرواح . وفى هذا الطور حفل التاريخ البشرى بأعمال عقلية ضخمة ، سجلها فيما ادخره من تراث الفلسفة الإغريقية التى خرّجت نخبة من قادة الفكر فى الحياة ، وفى هذا الطور بدأت الرسالات الإلهية تؤاخى بين الحقائق العليا من المعارف الكونية وبين أمور الحياة الواقعة والحوادث الجزئية التى تحيا مع الناس ويحيا الناس معها فتحدثت التوراة عن الخالق جل شأنه وعن الكون ، وعن النبوة والأنبياء والوحى والملائكة ، وعن الحياة الآخرة وعن الثواب والعقاب ، وعن علاقة المخلوق بالخالق وعلاقات الناس بعضهم ببعض

فى حياتهم التى يتقلبون فيها ، ونحو هـذا من القضايا والتشريعات التى لم تفصح عنها الرسالات السابقة .

بيد أن أسلوب التوراة فى التعبير عن ذلك كله كان أسلوبا يعتمد على الحس وتغمره الأمثلة والصور المـادية ويقل فيه المنطق الروحى القائم على التجريد ، وذلك مراعاة لأثر الرواسب الفرزية المستخفية فى داخل الطبيعة البشرية مما كان يطفر إلى سطح الحياة فى غفلة من العقل كما تطفر فقاعات الهواء الفاسد التى تتنفس عنها حياض المستنقعات ، وكان جيل بنى إسرائيل هو المرآة التى ظهرت فيها تلك الصور ، فهو جيل عرف من الحقائق العليا ما لم يعرفه غيره ممن سبقه من الأمم ، وهو جيل خاطبت فيه الرسالات الالهية العقل وشرّعت له ، وهو نفسه الجيل الذى تبلد عقله وأنكر معارفه العليا فى لحظة استعلى فيها سلطان الغريزه فحجبه عن السماء وجذبه إلى الأرض ونسى ماضيه القريب .



والقرآن الـكريم يصور ذلك تصويراً بارعا فى قوله (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) فليس إلا مجاوزة البحر بهم ، وكانوا قبل هذه المجاوزة المثل المضروب فى عرفان الحقائق العليا ، وتوحيد الله ونعوت كماله ، فنسوا ذلك كله ، وعادوا كأخبث ما كانت طبيعة بليدة مظلمة ، وكأضعف ما كان عقل مستعبد للمادة العمياء .

أما التشريع للحوادث الواقعة فى الحياة اليومية التى تربطهم بالناس وتربط الناس بهم فقد أحالته غرائزهم المسعورة إلى رسوم استغلالية لا تقيم وزنا للقيم الخلقية ولا تعرف فيصلا بين فضيلة ورذيلة سوى المنفعة الذاتية مهما كانت وسيلتها ؛ ولذلك جاءهم الانجيل ترنيمات زاهدة خاشعة مترهبة متصـــوفة لتهدئة فورة الغرائز وتخفيف ثورتها ولـكن طبيعتهم المتمردة لم تألف تلك الترنيمات ولم ينسجم وقعها فى قلوبهم فمسخوها وثنيات سخيفة أنـكرها العقل الذى بلغ فى الطور من أطوار الإنسانية رشده وتكاملت خصائصه ، فاشرأب إلى مكانه من الحياة ، وتطلع ينظر فى شوق إلى السماء ليسمع من آفاقها النداء برسالة إلهية كاملة شاملة تقوده إلى آفاق المعارف الـكونية العليا وأسرار الوجود ونظم الحياة ، فكانت تلك الرسالة هى الرسالة المحمدية خاتمة الشرائع الالهية على يد محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين .

التشريع الجنائي الإسلامي

للأستاذ عبد القادر عوده

(٣)

١٥ — المساحقة : وتسمى السّحق والتدالك ؛ وهي إتيان المرأةِ المرأةَ والفعل متفق على تحريمه لقول الله تعالى « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » فصح بالدليل من القرآن والإجماع أن المرأة لا تحل لملك يمينها ، وأنه منها ذو محرم ؛ حيث أسقط الله الحجاب عن أمهات المؤمنين عن عبيدهن مع ذى محارمهن من النساء فصار العبد مع سيدته ذا محرم ؛ فإذا أباحت المرأة فرجها لغير زوجها من امرأة أو رجل فهى لم تحفظه . ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يُفض الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد ولا تفض المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد » وهذا النص صريح فى تحريم السحاق لأنه إفضاء المرأة إلى المرأة ، ولقوله أيضاً « إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان » .

ومن المتفق عليه أن لا حدّ فى الفعل وأن عقوبته التعزير لأنه معصية لا حد فيها وإذا كان النص قد وصف الفعل بأنه زنا فإن ذلك لا يلحقه بالزنا المعاقب عليه بالحد لأن السحاق مباشرة دون إيلاج، والزنا المعاقب عليه بالحد يقتضى الإيلاج فكان السحاق مما يجب فيه التعزير لا الحد كما لو باشر الرجل المرأة دون الفرج أى دون إيلاج[1]

١٦ — وطء الصغير أو المجنون امرأة أجنبية : لا حد على الصغير أو المجنون فى وطء المرأة الأجنبية لعدم أهليتهما إذ الصغير لا يؤخذ بالحد إلا بعد بلوغه والمجنون لا يؤخذ به إلا فى حال إفاقته ؛ على أن الصغير يعزر على الفعل إذا كان مميزاً .

---

(١) شرح الزرقانى حـ ٨ ص ٧٨ — شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٥٠ — نهاية المحتاج حـ ٧ ص ٤٠٤ — المهذب حـ ٢ ص ٢٨٦ — المغنى حـ ١٠ ص ١٦٢ — المحلى حـ ١١ ص ٣٩٠ — ٣٩٢ — شرح الأزهار حـ ٤ ص ٣٣٦ .

وقد اختُلف فى حكم المرأة التى يطأها الصبى أو المجنون ؛ فرأى أبو حنيفة أن المرأة التى يطأها الصبى أو المجنون لا حد عليها ولو كانت مطاوعة وإنما عليها التعزير ، وحجته أن الحد يجب على المرأة ليس لأنها زانية فإن فعل الزنا لا يتحقق منها إذ هى موطوءة وليست بواطئة وتسميتها فى القرآن زانية مجاز لا حقيقة ؛ إنما يجب عليها الحد لكونها مزنياً بها ، ولما كان فعل الصبى والمجنون لا يعتبر زناً عند أبى حنيفة فلا تكون مزنياً بها [1] .

ويرى مالك رأى أبى حنيفة فى حالة ما إذا كان الواطىء صبياً ، ولكنه يرى حد المرأة إذا طاوعت المجنون ، وحجته فى هذه التفرقة أن المرأة تنال لذة من المجنون ولا تنال من الصبى [2] .

أما الشافعى فيرى أن تحد المرأة فى الحالين ولو لم يعاقب الصبى والمجنون ، لأن العقاب امتنع عن الصبى والمجنون لمعنى يخصه هو فليس للمرأة — وقد ارتكبت الجريمة — أن تستفيد من ظروف شريكها الخاصة ، وعلى هذا الرأى الظاهريون والزيديون [3] .

ويرى زُفر من أصحاب أبى حنيفة رأى الشافعى وهو رواية عن أبى يوسف وحجتهما أن كلا من الزانى والزانية مؤاخذ بفعله وقد فعلت المرأة ما هى به زانية لأن حقيقة زناها انقضاء شهوتها بآلته وقد وجد ذلك [4] .

وفى مذهب أحمد رأيان أرجحهما يتفق مع مذهب الشافعى ، والثانى يفرق كمذهب مالك بين ما إذا كان الواطىء صبياً أو مجنوناً ، ويرى أصحاب هذا الرأى الثانى أن تحد امرأة إذا طاوعت المجنون ولا تحد إذا وطئها صبى لم يبلغ سنه عشر سنوات فإن بلغ هذه السن حُدّت . ويؤخذ على هذا الرأى أنه قائم على تحديد السن والتحديد إنما يكون بالتوقيف أى بنص ولا توقيف فى هذا [5] .

١٦ — وطء العاقل البالغ صغيرة أو مجنونة : واختلف أيضاً فى وطء العاقل البالغ لصغيرة أو مجنونة فيرى مالك أن الواطىء يحدّ لإتيان المجنونة الكبيرة ، ويحد كذلك لإتيان الصغيرة مجنونة أو غير مجنونة كلما أمكنه وطؤها ، ولو كان الوطء غير ممكن لغيره ، فإذا لم يكن وطء الصغيرة ممكناً للواطىء فلا حد وإنما يعزر على الفعل [6] .

(١) شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٥٦ — بدائع الصنائع حـ ٧ ص ٣٤ .
(٢) شرح الزرقانى حـ ٨ ص ٧٨ .
(٣) أسنى المطالب حـ ٤ ص ١٢٨ — المحلى حـ ١١ ص ١٥٦ — شرح الأزهار حـ ٤ ص ٣٣٨
(٤) شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٥٦ .
(٥) المغنى حـ ١٠ ص ١٥٢ .
(٦) شرح الزرقانى حـ ٨ ص ٧٦ .

ويرى أبو حنيفة وأصحابه أن العاقل البالغ إذا زنى بمجنونة أو صغيرة يجامع مثلها وجب عليه الحد لأن فعله زنا ولأن العذر من جانبها لا يوجب سقوط الحد من جانبه[1]

ويختلف مذهب مالك عن مذهب أبى حنيفة فى أن مالكا يجعل الحد منوطاً بإمكان الجانى وطء الصغيرة ولو كان مثلها لا يجامع ، أو لو كان الوطء غير ممكن لغيره ، بينما يجعله أبو حنيفة منوطا بصلاحية الصغيرة للجماع بصفة عامة .

ويتفق مذهب الشيعة الزيدية مع مذهب أبى حنيفة [2] .

ويرى الشافعى حد العاقل البالغ إذا زنى بمجنونة أو صغيرة ما دام الوطء قد حدث فعلا ولا يقيد العقوبة بأى قيد[3] وهذا هو ظاهر مذهب الظاهريين[4] .

وفى مذهب أحمد رأيان يتفق أحدهما مع مذهب الشافعى ، أما الثانى فيخالفه فى حالة وطء الصغيرة مجنونة أو غير مجنونة ، ويفرق أصحاب هذا الرأى بين ما إذا كانت الصغيرة يمكن وطؤها أو لا يمكن ، فإن كان الوطء ممكناً فهو زنا يوجب الحد لأنها كالكبيرة فى ذلك ، وإن كانت الصغيرة لا تصلح للوطء فلا حد على من وطئها وإنما عليه التعزير ، وبعض أصحاب هذا الرأى يحدد سن الصغيرة التى لا تصلح للوطء بتسع سنوات وحجته أن الصغيرة لا تشتهى فى هذه السن وأن وطأها يشبه ما لو أدخل إصبعه فى فرجها[5] .

والقائلون بحد المرأة إذا وطئها صبى أو مجنون وبحد الرجل إذا وطئ مجنونة أو صبية يتفق رأيهم مع نص المادة «٣٩» من قانون العقوبات المصرى وهى تقضى بأن الظروف الخاصة بأحد الفاعلين لا يتعدى أثرها إلى غيره منهم . على أن القائلين بالرأى المضاد لا يخالفون هذا المبدأ لذاته ولكنهم يطبقون الحديث المشهور : « إدرأوا الحدود بالشبهات » فهم يرون أن الجريمة لا تقع إلا من اثنين بطبيعة الحال ولا يمكن أن تتم إلا باجتماعهما ، ويرون فى إعفاء أحدهما من العقوبة شبهة فى حق الآخر تدعو إلى درأ الحد عنه والاكتفاء بتعزيره .

١٨ — الوطء بشبهة : لا يصحح الظاهريون ما روى عن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٥٦ .

(٢) شرح الأزهار حـ ٤ ص ٣٣٨ .

(٣) أسنى المطالب حـ ٤ ص ١٢٨ .

(٤) المحلى حـ ١١ ص ١٥٦ ، ٢٥٦ .

(٥) المغنى حـ ١٠ ص ١٥٢ .

وسلم من قوله « ادرأوا الحدود بالشبهات » ولذلك فهم يرون أن الحدود لا يحل أن تدرأ بشبهة ولا أن تقام بشبهة وإنما هو الحق لله تعالى ولا مزيد ، فإن لم يثبت الحد لم يحل أن يقام بشبهة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام » وإذا ثبت الحد لم يحل أن يدرأ بشبهة لقول الله تعالى « تلك حدود الله فلا تعتدوها » (١)

أما باقى الفقهاء فيصححون حديث « ادرأوا الحدود بالشبهات » وهم متفقون على أن الوطء بشبهة لا حد فيه ولكنهم اختلفوا فيما يعتبر شبهة ، وأساس الخلاف فى اعتبار الشبهة هو الاختلاف فى التقدير فيرى البعض أن حالة معينة تعتبر شبهة ويرى البعض أنها لا تعتبر كذلك .

والشبهة هى ما يشبه الثابت وليس بثابت (٢) . وقد اهتم الحنفيون والشافعيون بتقسيم الشبهة وتنويعها بينما لم يهتم غيرهم من الفقهاء بهذا الأمر ، واكتفوا بإيراد ما يعتبر شبهة وعلة اعتباره شبهة ، على أن الشبهات عند الجميع لا يمكن حصرها لأن أساسها فى الغالب الوقائع وهى لا تحصر .

ويقسم الشافعيون الشبهة إلى ثلاثة أقسام : —

١ — شبهة فى المحل : كوطء الزوجة الحائض أو الصائمة أو إتيان الزوجة فى دبرها فالشبهة هنا قائمة فى محل الفعل المحرم ، لأن المحل مملوك للزوج ومن حقه أن يباشر الزوجة ، وإذا لم يكن له أن يباشرها وهى حائض أو صائمة أو أن يأتيها فى الدبر ، إلا أن ملك الزوج للمحل وحقه عليه يورث شبهة ، وقيام هذه الشبهة يقتضى درء الحد سواء اعتقد الفاعل بحل الفعل أو بحرمته ، لأن أساس الشبهة ليس الاعتقاد والظن وإنما أساسها محل الفعل وتسلط الفاعل شرعا عليه .

٢ — شبهة فى الفاعل : كمن يطأ امرأة زفت إليه على أنها زوجته ثم تبين أنها ليست زوجته ، وأساس الشبهة ظن الفاعل واعتقاده بحيث يأتى الفعل وهو يعتقد أنه لا يأتى محرما ، فقيام هذا الظن عند الفاعل يورث شبهة يترتب عليها درء الحد ، فإذا أتى الفاعل الفعل وهو عالم بأنه محرم فلا شبهة .

٣ — شبهة فى الجهة أو الطريق : ويقصد من هذا التعبير الاشتباه فى حل الفعل وحرمته ، وأساس هذه الشبهة الاختلاف بين الفقهاء على الفعل ، فكل ما اختلفوا

---

(١) المحلى حـ ١١ ص ١٥٣ . (٢) شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٤٠ .

على حله أو جوازه كان الاختلاف فيه شبهة يدرء بها الحد ؛ فمثلا يجيز أبو حنيفة النكاح بلا ولى ، ويجيز مالك النكاح بلا شهود ، ويجيز ابن عباس نكاح المتعة ، ومن ثم فلا حد على الوطء فى هذه الأنكحة المختلف عليها ؛ لأن الخلاف يقوم شبهة تدرأ الحد ، ولو كان الفاعل يعتقد بحرمة الفعل لأن هذا الاعتقاد فى ذاته ليس له أثر ما دام الفقهاء مختلفين على الحل والحرمة (١) .

ويقسم الحنفيون الشبهة إلى قسمين :

الأول : الشبهة فى الفعل (٢) ويسمونها شبهة اشتباه وشبهة مشابهة وهى شبهة فى حق من اشتبه عليه الفعل دون من لم يشتبه عليه . وتثبت هذه الشبهة فى حق من اشتبه عليه الحل والحرمة، ولم يكن ثمة دليل سمعى يفيد الحل بل ظن غير الدليل دليلا كمن يطأ زوجته المطلقة ثلاثا أو بائنا على حال فى عدتها ، وتعليل ذلك أن النكاح إذا كان قد زال فى حق الحل أصلا لوجود المبطل لحل المحلية وهو الطلاق فإن النكاح قد بقى فى حق الفراش والحرمة على الأزواج فقط ومثل هـذا الوطء حرام فهو زنا يوجب الحد إلا إذا ادعى الواطىء الاشتباه وظن الحل لأنه بنى ظنه على نوع دليل وهو بقاء النكاح فى حق الفراش وحرمة الأزواج فظن أنه بقى فى حق الحل أيضا هذا وإن لم يصلح دليلا على الحقيقة لـكنه لما ظنه دليلا اعتبر فى حقه درأ لما يندرىء بالشبهات .

ويشترط لقيام الشبهة فى الفعل أن لا يكون هناك دليل على التحريم أصلا وأن يعتقد الجانى الحل ، فإذا كان هناك دليل على التحريم أو لم يكن الاعتقاد بالحل ثابتا فلا شبهة أصلا ، وإذا ثبت أن الجانى كان يعلم بحرمة الفعل وجب عليه الحد (٣) .

الثانى : الشبهة فى المحل ويسمونها الشبهة الحكمية أو شبهة الملك وينبغى أن يكون الثابت منها شبهة حكم الشرع بحل المحل ، فيشترط فى هذه الشبهة أن تكون ناشئة عن حكم من أحكام الشريعة وهى تتحقق بقيام دليل شرعى ينفى الحرمة ولا عبرة بظن

---

(١) أسنى المطالب حـ ٤ ص ١٢٦ .

(٢) يحصر الحنفيون شبهة الفعل فى جريمة الزنا فى ثمانية مواضع منها وطء المطلقة ثلاثاً فى العدة أو بائنا على حال وكذا المختلعة وبقية المواضع خاصة بالجوارى ولا محل للتعرض لها بعد إبطال الرق . وبقية الفقهاء يخالفون الحنفيين ولا يرون شبهة فى هذه المواضع الثمانية ومن ثم فهم لا يفرقون بشبهة الفعل فى جريمة الزنا — راجع الزرقانى ثامن ص ٧٧ — ومواهب الجليل حـ ٦ ص ٢٩٢ — وأسنى المطالب حـ ٤ ص ١٢٧ والمغنى حـ ١٠ ص ١٥٤ .

(٣) شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٤٠ — ١٤٤ — بدائع الصنائع حـ ٧ ص ٣٦ .

الفاعل فيستوى أن يعتقد الفاعل الحل أو يعلم الحرمة لأن الشبهة ثابتة بقيام الدليل الشرعى لا بالعلم وعدمه .

ويحصر الحنفيون شبهة المحل فى جريمة الزنا فى ستة مواضع أحدها وطء المطلقة طلاقا بائنا بالكنايات وبقية المواضع خاصة بوطء الجوارى ولا محل للتعرض لها بعد إبطال الرق . ويعللون قيام الشبهة فى وطء المطلقة بائنا بالكنايات أن زوال الملك بالإبانة وسائر الكنايات مجتهد فيه لاختلاف الصحابة رضى الله عنهم والمعروف عن عمر أنه كان يقول فى الكنايات إنها رواجع والطلاق الرجعى لا يزيل الملك فاختلافهم أورث شبهة[1] والشافعيون والحنابلة من رأى الحنفيين فى وطء المطلقة بائنا فى الكنايات أما المالكيون فيرى بعضهم الرأى السابق ويرى البعض أن لا شبهة فى هذا الوطء[2] .

ويرى أبو حنيفة أن الشبهة تثبت أيضا بالعقد ولو كان العقد متفقا على تحريمه وكان الفاعل عالما بالتحريم وبالاتفاق عليه كما هو الحال فى نكاح المحارم فالشبهة إذن على رأى أبى حنيفة ثلاثة أنواع : شبهة فى الفعل ، وشبهة فى المحل ، وشبهة فى العقد ، ولكن أصحابه لا يقولون بالنوع الأخير أى بشبهة العقد[3] وهم فى هذا يتفقون مع ما يراه بقية الفقهاء .

١٩ — وطء المحارم : ووطء المحارم زنا يجب فيه الحد بالإجماع ، فإذا تزوج شخص ذات محرم منه فالنكاح باطل اتفاقا ، فإن وطئها فعليه الحد فى قول مالك والشافعى وأحمد والظاهريين والزيديين ويأخذ بقولهم أبو يوسف ومحمد من أصحاب أبى حنيفة .

ولكن أبا حنيفة نفسه يرى أن من تزوج امرأة لا يحل له نكاحها كأمه أو ابنته أو عمته فوطئها لم يجب عليه الحد ولو اعترف بأنه يعلم بأنها محرمة عليه وإنما عقوبته التعزير ويسقط أبو حنيفة الحد فى هذه الحالة للشبهة ، وبيان الشبهة أنه قد وجدت صورة المبيح وهو عقد النكاح الذى هو سبب للاباحة ، فإذا لم يثبت حكمه وهو الإباحة بقيت صورته شبهة دارئة للحد الذى يندرئ بالشبهات .

ويُرد على أبى حنيفة بأن الوطء حدث فى فرج مجمع على تحريمه من غير ملك

(١) المرجعين السابقين .

(٢) مواهب الجليل حـ ٦ ص ٢٩٢ — أسنى المطالب حـ ١٠ ص ١٢٧ المغنى ص ١٥٤ — الإقناع حـ ٤ ص ٢٥٤ .

(٣) شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٤٣ .

ولا شبهة ملك ، والواطىء من أهل الحد عالم بالتحريم فلا عذر له ويلزمه الحد ، أما العقد فهو باطل ولا أثر له مطلقا فهو كأن لم يوجد ، وصورة المبيح إنما تكون شبهة إذا كانت صحيحة (١) .

٢٠ — الوطء فى نكاح باطل : — وكل نكاح مجمع على بطلانه — كنكاح خامسة أو متزوجة أو معتدة أو نكاح المطلقة ثلاثا — إذا وطئ فيه فهو زنا موجب للحد المشروع فيه قبل العقد ، ولا عبرة بوجود العقد ولا أثر له وبذلك قال مالك والشافعى وأحمد والظاهريون والزيديون وهو ما قال به أبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة (٢)

ولكن أبا حنيفة يرى أن وجود العقد شبهة تدرأ الحد ومن ثم فعقوبة الوطء عنده هى التعزير (٣) .

٢١ — الوطء المختلف فيه : ولا يجب الحد فى نكاح مختلف فيه . كنكاح المتعة والشغار والتحليل والنكاح بلا ولى ولا شهود ونكاح الأخت فى عدة أختها البائن ونكاح الخامسة فى عدة الرابعة البائن لأن الاختلاف فى الوطء شبهة والحدود تدرأ بالشبهات إلا عند الظاهرين فإنهم لا يسمونه بالشبهة ومن ثم فهم يرون الحد فى كل وطء قام على نكاح باطل أو فاسد (٤) .

---

(١) راجع فى كل ماسبق شرح الزرقانى حـ ٨ ص ٧٦ — شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٤٧ — أسنى المطالب حـ ٤ ص ١٢٧ — المغنى حـ ١٠ ص ١٥٢ — المحلى حـ ١١ ص ٢٥٦ — شرح الأزهار حـ ٤ ص ٣٤٨ .

(٢) شرح الزرقاني ثامن ص ٨٦ ، ٧٧ — شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٤٣ أسنى المطالب حـ ٤ ص ١٢٧ — المغنى حـ ١٠ ص ١٥٤ — المحلى حـ ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ — شرح الأزهار حـ ٤ ص ٣٤٨ .

(٣) شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٤٣ ، ١٤٨

(٤) شرح الزرقانى ثامن ص ٧٥ — شرح فتح القدير حـ ٤ ص ١٤٨ — أسنى المطالب حـ ٤ ص ١٢٦ — المغنى حـ ١٠ ص ١٥٥ -- المحلى حـ ١١ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ — شرح الأزهار جـ ٤ .

استغلال الأرض في الإسلام

للأستاذ محمود أبو السعود
مستشار بنك الدولة فى الباكستان

(٢)

الملكية فى الإسلام :

لا خلاف فى أن الإسلام يبيح الملكية بوجه عام فالشيوعية التى ترى ألا يملك الفرد شيئاً من عناصر الإنتاج تخالف روح التشريع الإسلامى ، كما أن الملكية المطلقة كما ينادى بها الرأسماليون اليوم لا يقرها الإسلام لتطرفها وتغاليها . ولقد وردت قيود ليست بالهينة على الملكية فى التشريع الإسلامى بنيت على المبدأ الإسلامى العام « رفع الضرر » ورفاهية المجموع .

فالفرد حر فى أن يملك ما يشاء من عقار أو منقول وله أن يتصرف فى ملكيته حسبما يراه الأصلح له ، وشرط ذلك ألا يخالف قاعدة إسلامية وألا يضار أحدا من جراء تصرفه ، هذان الشرطان قد يبدو فيهما لبس كثير وغموض كما أن فيهما مرونة تسع مختلف التأويلات والتفسيرات ، فما هى القواعد الإسلامية التى يجب أن يراعيها المالك وما هى احتمالات الضرر وما حدوده ؟

أما القواعد العامة للتملك فى الشريعة فلا تختلف كثيراً عما نألفه الآن من قواعد عامة إذ يجب أن يكون مصدر التملك حلالا ؛ فمن ملك أرضاً اشتراها بمال مسروق بطلت ملكيته وحيازته . ومن القواعد العامة أن تتم الحيازة والملكية فى حدود القانون العام ؛ فمن اشترى عقاراً من شخص غير أهل للتصرف بطل التعاقد بينهما . أضف إلى هذا ألا يقع غش أو تدليس أو إكراه أو ما يبطل العقود عامة . هذه الناحية ظاهرة وقد فصلها الفقهاء فى باب العقود أدق تفصيل . وهم وإن اختلفوا فى هذا التفصيل فإنهم متفقون فى الجوهر واللباب .

وهناك وجه آخر يدخل فى هذا الباب وهو أنه إذا ارتأت الدولة أن تنفرد بملكية طيب من الطيبات ، منقولا كان أو عقاراً ، استهلاكيا أم إنتاجيا ، فلا يصح للفرد

حينئذ أن يتملكه . ويعتبر هذا من القواعد العامة إذ على الفرد أن يخضع للدولة وما دامت هذه ارتأت أن تنفرد بملكية معينة فليس للفرد أن يخرج عليها . ولقد يُتساءل : هل فى إمكان الدولة الإسلامية أن تسن من التشريع ما تستحوز به على أية ملكية كانت ؟ الجواب بالإيجاب ما دامت الدولة إسلامية بمعنى الكلمة إذ أنها لن تقرر هذا ما لم تكن المصلحة العامة موجبة له (عمر فى عام المجاعة) .

أما فيما يختص بدفع الضرر الذى يقع على الغير فذلك هو العسير فى التفسير . ذلك أنك قد تملك أرضا بمال حلال وعن تعاقد صريح صحيح ثم تتكاسل عن استغلال هذه الأرض بنفسك مع حاجة جمهور الناس إليها ، هنا يأبى الإسلام الأغر أن يعتاز الناس وهناك مصدر لدفع العوز — وهو استغلال الأرض — والعوز ضرر ودفع الضرر محجوب بملكيتك ، وهذا لا يجيزه منطق سليم . هذا مثـــال فيه بعض التعقيد وسنعرض له فيما يلى ، وإنما سقناه لنبين أن « دفع الضرر » مبدأ يتسع لكثير من التفسيرات . ولا شك أن هناك أمثلة أخرى يبدو فيها الضرر صريحا وهو مقترن بالملكية كامتلاك جدول يستقى منه الغير ، والماء صادر من عين فجرها الله ، فهذا أمر لا يجوز قطعاً نظراً للضرر الواضح الذى يقع على غير المالك .

علينا إذن أن نبحث عن الحكمة التى بها نحكم على وجود الضرر أو انعدامه ، ونعين حدوده وهذا أمر مرده إلى روح التشريع ، والأساس الإسلامى للمجتمع : أما روح التشريع فهو قائم على وحدة الجماعة وتضامنها بأقصى ما تحتمل الكلمات من معان ؛ فالفرد مسئول عن الكل والكل مسئول عن الفرد ، لا مسئولية مدنية فحسب بل مسئولية كاملة معنوية ومادية ؛ مسئولية تشمل العبادات والمعاملات . فمن جهر بمعصية الخالق حُق لأى فرد أن يطالب عقابه ، ومن أجار شريداً أو طريداً أو محاربا فعلى المجتمع أن يحترم عهده وإجارته ، ومن افتقر فعلى الكل إعانته على فقره وهكذا — هذا أصل من الأصول يتبعه أمر آخر هو أن العمل أساس الإنتاج وهما معا برهان صدق الإيمان الذى لا يقوم المجتمع الإسلامى إلا به ، فالإسلام لا يبيح الهرج ولا التكاسل ولا يقر بإنتاجية لا تشمل عنصر العمل . وهذا يجرنا إلى البحث فى ملكية « رأس المال » بمعناه العصرى ورأى الإسلام فى استغلاله .

إذا قلنا إن رأس المال هو مجموع مدخر من مجهودات سابقة فى صورة مادية قصد استغلالها فى استثمار لاحق فإن الإسلام يبيح هذا الاستثمار — ما دام المستثمر يبذل عملا أو يتحمل خطراً .

والقاعدة الإسلامية فى هذا « الغنم بالغرم » . ولا جدال فى أن من يشترى بمدخراته سندات تدر عليه فائدة ثابتة إنما يخالف روح التشريع ويكتسب على نفسه ربا محرما ، وظاهر أن الحكمة من هذا عدم التكاسل وتداول الأموال والحض على المساهمة فى زيادة القوى الإنتاجية فى الدولة فليس الشريك كالمقرض ، ولا العامل بنفسه كالعامل بجهود غيره . نفس هذه النظرية تنطبق على رجل ادخر مالا ثم اشترى أرضاً زراعية ولم تسمح له ظروفه باستغلالها بنفسه ، هل له أن يكريها أم لا ؟ الجواب الذى لا خلاف فيه بالنفى ، فكراء الأرض ككراء رأس المال سواء بسواء ، إذ سيأخذ صاحب الأرض أجراً على رأس ماله المستثمر فى الأرض دون مشاركة بعمل أو مساهمة فى خطر ، وهذا ما لا يقره الإسلام . ولقد حرم الإسلام كراء الأرض[1] بنص الحديث المتفق عليه كما سنورده إن شاء الله تعالى . كما أن روح التشريع كما ذكرنا تعارض مثل هذا الاستثمار . وواقع الأمر أن التجربة تثبت بغير شك أن كراء الأرض يدعو إلى إيجاد طبقة من (الملاك) تختلف مصالحها مع مصالح (طبقة المزارعين) ، فأولئك يعيشون فى رغد دون عمل وينعمون بترف لا يقره الإسلام دون ما خطر، بينما يشقى المزارعون فى فلاحة الأرض واستنباتها ، عليهم الغرم كله والعمل كله وهذا إجحاف لا يقره منطق ولا شريعة .

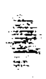
الأصل فى الإسلام إذن إباحة ملكية الأرض وغيرها من هبات الطبيعة على أن تكون الملكية بحقها ، وحقها استغلالها ببذل الجهود المنتجة فيها وذلك بقصد فائدة المجتمع التى يجب أن تغلب دواما على مصلحة الفرد حيثما تعارضت المصلحتان . هذا الحكم يمكن أن نورده بصورة أخرى : هى أن الإسلام يحرم ملكية أى عنصر من عناصر الإنتاج مادام المالك لا يستغله بجهوده المباشرة أو غير المباشرة فى نفع المجتمع وزيادة رفاهيته فكل ملكية لا يستثمرها مالكها بجهوده لهذا الغرض ساقطة وإن كانت مكتسبة بعقد صحيح وعلى أساس سليم .

هنا يجدر بنا أن نعرض لطريقة أخرى من طرق الاستثمار — ألا وهى المزارعة . وبصرف النظر عن اختلاف الفقهاء وتجريح بعض ما ورد من الأحاديث الشريفة فيها والاستدلال بما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخريج تصرفه عليه السلام ؛ فإن منطق الشريعة فى المزارعة واضح كل الوضوح إذ لو سلمنا جدلا بما أسلفنا من مقدمات لكانت النتيجة أن المزارعة فى بعض صورها مشاركة فى الربح دون عمل مادى أو معنوى ، بل إنها قد تكون استمتاعا بغنم دون غرم . مثال ذلك مالك لأرض زارع

---

(١) هذه مسألة خلافية وقد اختار « الباحث » هذا الرأى . (التحرير)

آخر على ألا يساهم الأول فى الإنتاج إلا بتقديم « رأس المال » الثابت وهو الأرض ، وعلى الثانى أن يقدم البذر (وهو رأس مال) والآلات والماشية والسماد (وكلها رأس مال) وأن يقوم فوق ذلك بالعمل فإذا ما أنبتت الأرض فللأول النصف من المحصول أو الثلث أو الربع . هذه حالة كثيرة الذيوع والوقوع فى الحياة العملية ولسنا نراها متمشية مع ماحلله الشرع ولاما أوجبه . إذ لو كان نصف المحصول (وهو نسبة المحاقلة فرضاً) أقل مما بذله الشريك العامل من رأس مال لكان هذا غرما دون شك ، ولأخذ الشريك الأول نصف المحصول وهو آمن من كل خطر . رب قائل يعترض بأن الشريك الأول معرض للخطر أبداً إذ أن النصف مجهول الكم وقد يصل إلى الصفر عدا ، وهذا صحيح من الناحية النظرية ولكنه نادر من ناحية التطبيق . وحتى لو سلمنا به فإنه من غير المعقول أن تنقص قيمة رأس مال الأول (أى الأرض) باستثمارها فهو على كل حال ومهما كانت نتيجة المحصول ضامن لاسترداد رأس ماله بالكامل بينما شريكه قد خسر كل رأس ماله أو بعضه كما خسر عمله . ولما كانت المشاركة لاتقوم على أساس سليم ما لم يطبق مبدأ « الغنم بالغرم » فنحن نرى أن المزارعة فى مثل هذه الصورة باطلة تماما أقرب ماتكون إلى الأقراض بربا حيث يعطى المقرض رأس ماله لتاجر على أن يدفع له حصة معينة وعلى ألاينقص رأس ماله مهما بلغت خسارة التاجر . إن اشتراط حصة من الناتج من الأرض مثل اشتراط حصة من الربح ولايمكن أن نبرر صحة مثل هذا العقد لمجرد أن يكون نصيب الشريك نسبة مئوية دون عدد رقمى ثابت . والعيب فى هذا الوضع هو ألايقل رأس المال بل يزيد أبدا مازادت حصة الشريك ، فإن انعدمت استرد رأس ماله . فإن خسر الشريك العامل جزءاً من رأس المال حصل الشريك المساهم على رأس ماله دون نقصان .



أما إن كانت المزارعة قائمة على أن يقوم الشريكان بالإنتاج فتلك ولاشك مزارعة سليمة لاعيب فيها . فإن أمد صاحب الأرض شريكه بالبذر مثلا صحت المزارعة أيضاً لأنه إذا لم تنبت الأرض شيئاً تساوى الغرمان (مع اعتبار نسبة المزارعة) إذ سيفقد الأول بذره وسيفقد الثانى زبله وعمله وستبقى الأرض سليمة لصاحبها . فإن أخذت االمزارعة غير هاتين الصورتين فهى باطلة عندنا حتى ولو ساهم صاحب الأرض فوق أرضه بالسماد ، إذ السماد رأس مال غارق تستفيد منه الأرض على أى حال وهى باقية لصاحبها وهلاك الزرع لايهلك الزبل . حقيقة قد يقال أن الزرع استفاد من الزبل كثيراً وأن هلاكه خسارة فى رأس مال مستثمر (وهو الزبل) إلا أن الأحوط أن نقول إن تسميد الأرض يعود عليها بفائدة أكثر مما يعود على زرعة واحدة منها وأن هلاك الزرع

لن يفنى ما بذل فى الأرض من تسميد . فلا يصح عندنا إذن أن تكون المزارعة به وحده اللهم إلا إذا كانت قيمة الزبل كبيرة بدرجة يعتد بها وكانت طبيعة الزرع أن يمتص السماد كله أو أكثره ، وهذا كثير الوقوع فى عصرنا هذا . والعبرة فى التحليل ليس لفظ البذر أو الزبل وإنما فى وجوب مساهمة رب الأرض برأس مال معتبر غير الأرض ذاتها ، ليكون اشتراكه فى المزارعة اشتراكا صحيحا يتحمل فيه مع العامل غنما بغرم .

والعبرة فى توزيع الناتج من الأرض هو نسبة ما يساهم به رب الأرض ، والصحيح ألا يكون للأرض سهم يحصل عليه مالكها ، لأن الأرض لله والانبات من نعمه ، وحصة صاحب الأرض يجب ألا تتجاوز نسبة ما ساهم به فعلا فى نفقات الزرع . فإن قيل إن فى هذا غبنا عليه إذ قد يكون بذل فى أرضه من قبل جهوداً أكسبتها ميزات على غيرها من أرض الغير واستحدث فيها من الاصلاحات ما يجعلها أكثر انباتا وأسهل زراعة على المزارع العامل فيها . من أجل ذلك وجب أن يحصل على حصة أكبر من حصة مالك آخر لم يستصلح من أرضه بمقدار ما استصلح هذا منها . جواب ذلك أن ريع الأرض اقتصاديا هو ميزتها على أرض جدبة أى أرض غير مربحة ولا خاسرة ، وإن مستصلح الأرض ومالكها سينال من الريع أو من الغلة الناتجة من الأرض أكثر مما تغله أرض لا ريع لها أو أرض قليلة الغلة ، والفائض سيقسم بينه وبين العامل فى الأرض بنسبة المساهمة بينهما . ولو لم يعمل العامل لما كان لاستصلاحه قيمة قط ، فاستثمار ما استغل من رأس مال غارق فى الاستصلاح سيتم على يد المزارع فوجب أن يعطى ثمن استثماره . وبعبارة أخرى أن من يبذل رأس مال غارق لاستصلاح أرضه سيحصل على غلة أكبر (مع بقاء الأشياء الأخرى على حالها) وسينال حصة أكبر من صافى الريع .

« للبحث بقية »

المترفون ...

« شرار أمتى الذين وُلدوا فى النعيم وغذّوا به : يأكلون من الطعام ألوانا ، ويلبسون من الثياب ألوانا ، ويركبون من الدواب ألوانا ؛ يتشدقون فى الكلام » .

« حديث شريف »

الإسلام دين الوحدة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

نعم ! الإسلام دين الوحدة ، لا التوحيد فقط ، فقد أخذت كلمة « التوحيد » معنى خاصا لا تعدوه ، هو القول بإله واحد خلق السموات والأرض وما بينهما ، وإليه وحده يرد الأمر كله ، وذلك فى مقابل القول بإلهين اثنين أو آلهة متعددة . بينما الإسلام لا يدعو إلى توحيد الخالق فحسب ، بل قام على « الوحدة » فى كل شىء ؛ فى الناحية الإلهية ، والناحية السياسية ، والناحية الاجتماعية ، إلى غير ذلك كله من نواحى العالم والحياة .

***

١ — جاء الإسلام والعرب ، كما نعلم ، يعبدون آلهة شتى من صنع أيديهم ، فكان أول ما عُنى به رفض هذه الآلهة جميعا ، وتقرير أنه ليس إلا إله واحد مالك الأمر كله فليس هناك آلهة كُثر كما كان يرى المشركون بعامة ، ولا إلهان اثنان : واحد للخير وآخر للشر ، كما كانت عليه الثنوية بفارس ، ولا آلهة ثلاثة على ما كان يعتقد أهل الإنجيل بعد أن حرفوا ما نزِّل إليهم .

قرر القرآن هذه العقيدة فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : « قل هو الله أحد » ، « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ، « لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا » « وإلهكم إله واحد » ، « قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون » . ومنها قوله مخاطبا من كفر من النصارى بالمسيحية الحقة : « ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد ، وقوله فى آية أخرى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد » .

ومن العجيب حقا ، الدال على فساد العقل وعدم التميز بين الحق والباطل ؛ أن أولئك المشركين ، وقد جاءهم الإسلام بالتوحيد ، وأقام عليه الأدلة التى لا ريب فيها كانوا يقولون كما حكى القرآن عنهم : « أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا » !

« أجعل الآلهة إلهاً واحدا إن هذا لشئ عجاب » ! يقولون هذا ، وهم يرون رأى العين أن مازعموه آلهة لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى من الحق شيئا ، وأن هذه الآلهة لن تستطيع أن تخلق ذبابا ولو اجتمعت له ، ولـكنه ضلال العقل وفساد الحس وسلطان التقاليد !

٢ — ولم يكتف الإسلام بتقرير هذه « الوحدة » فى الإله الذى يستحق العبادة ، بل رأى أنه وسائر ما سبقه من ديانات سماوية « وحدة » واحدة : هى رسالة من الله للبشرية عامة ، بعضها يكمل البعض الآخر طبقا لسنة التدرج فى التربية والتعاليم ، وكلها يهدف إلى غاية واحدة وإن اختلفت وسائل الوصول إليها باختلاف الناس والأزمان .

وفى هذا نرى القرآن يقول فى سورة الشورى : « شرع لـكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، ثم يقول فى السورة نفسها : « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لأعدل بينكم الله ربّنا وربكم » ، وقبل هذا يقول فى سورة البقرة : « آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائـكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » ، كما يقول فى نفس السورة : «قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

فى هذه الآيات دليل ، أى دليـل ! على أن الإسلام يعتبر رسالات الأنبياء جميعاً « وحدة » لا تحتمل التفرقة ، وأن من لم يؤمن بأحدها لا يكون مسلما ، وأنه — نتيجة لذلك — يكون جميع الناس أمام هذه الشرائع والديانات وأمام الله سواء بلا تفرقة بين أتباع هذا أو ذاك من الرسل ، ما داموا يؤمنون برسالة خاتم الرسل والأنبياء .

إن الإسلام لم يقل ، كما قال أتبـاع موسى وعيسى عليهما السلام ، « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » ، بل ردّ هذا القول الذى ينضح بالتفرقة بين الأديان وأصحابها ، فقال : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، كما قال قبل هذا : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وذلك الأصل الذى تضمنته هاتان الآيتان ،

يقرر بصراحة ما جاء به الإسلام من « الوحدة » فى الدين ورسالات الله لأنبيائه ورسله ، وما يتبع ذلك من « الوحدة » فى المسئولية والجزاء .

ومن هنا نرى الإمام الشاطبي يلاحظ فى كتابه « الموافقات » ، أن السور المكية فى القرآن قررت من الأصول والتشريعات الأمور الكلية العامة ، يعنى الأمور التى لا تخص فرداً دون فرد أو فريقاً من الناس دون فريق ، والتى — لأنها كلية عامة — تبقى دائما أبداً ، إذ لا يخالف فيها دين دينا ، ولهذا يكون من صالح العالم كله أن يظله متبعاً لها فى كل زمان ومكان .

٣ — ثم مَنّ الله على العرب — والعالم بعامة — بالإسلام ، وهم قبائل وعشائر مختلفة متفككة الروابط متقطعة الوشائج والأوصال ؛ بعضهم لبعض عدو ، وبعضهم على بعض حرب ، وكان من هذا ما عرفه التاريخ باسم « أيام الحرب » أى حروبها فى الجاهلية .

وكان لبعض أقطار شبه الجزيرة العربية « إمارات » عليها أمراء يحكمونها ويلون أمرها ، ولبعضهم نوع من الاستقلال ، وإن كانت تتبع سياسيا دولة الفرس أو دولة الروم ، فماذا صنع الإسلام بهؤلاء الأقوام المتقاطعين المتعادين ؟

كان أن صنع منهم أمة واحدة حقاً ، لها رئيس واحد ، وتتبع سياسة واحدة ، وتستهدف غاية واحدة هى نشر الدين الحق للانسانية جميعا ليكون هاديها للخير وعز الدنيا وسعادة الآخرة . وكان من أوائل ما صنع الرسول فى هذا السبيل ، أن عمل على إزالة ما كان بين الأوس والخزرج « بيثرب » من عداوة كانت لا تزال مشبوبة النار ، بأن وحّد بينهم وجعلهم أنصاراً له على أعدائه من المشركين ، على ما هو معروف من تاريخ الإسلام .

وكان من أثر هذه « الوحدة » السياسية ، التى جاء بها الإسلام وعمل لها المسلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما لحق بالرفيق الأعلى ، واجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة لاختيار خليفة ، رأى الأنصار أن لهم حقا فى أن يكون الخليفة منهم لسابق نصرتهم للاسلام ورسوله ، لكن أبا بكر والمهاجرين جميعا مع عرفانهم بمآثر الأنصار ، ذهبوا إلى أن يكون الإمام من قريش كما أثر عن الرسول ، وهنا قال الحباب بن المنذر من الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فقال عمر الفاروق : هيهات ، لا يجتمع اثنان فى قَرَن ! وكان أن انتهى الأمر بتولية أبى بكر الخلافة ، ثم صارت سنة

متبعة ، فلم يكن فى عز الإسلام إلا خليفة واحد للأمة كلها على اتساع الدولة الإسلامية وامتداد أطرافها ، وكل هذا محافظة على « الوحدة » فى السياسة العامة للدولة .

وفى هذا السبيل ، يرى فقهاء الإسلام أنه لا يجوز تولية خليفتين فى وقت واحد ، وفى الدولة الواحدة ، حتى إنه يجب قتال من يخرج على خليفة العصر ، طالبا الخلافة لنفسه لأنه أفضل من الخليفة القائم فعلا . أين هذا مما نحن عليه اليوم من تجزئة الدولة الإسلامية إلى دول ، حتى صار فى كل بلد سرير ومنبر وعَلَم !

٤ — وإذا تركنا الناحية السياسية إلى الناحية الاجتماعية ، نرى « الوحدة » التى قررها الإسلام فى هذه الناحية بلغت من الروعة حد الإعجاب ، وصارت لهذا مضرب المثل تتحدى التاريخ كله والأمم جميعاً .

ففى الهند مثلا ، ترى الديانة البراهمية نفسها هى التى تقسم الأمة إلى طوائف أربعة ، وتجعل أعلى هذه الطبقات البراهمة أو الكهنة وأدناها السفلة أو الأنجاس . ويكفى لندرك ظلم هذا النظام الطبقى الصارخ وقسوته البالغة ؛ أن نعرف أنه جاء فى قوانين أحد مشرعى هذه الديانة ، وهو « منو manou » ، أن البراهمى يجب احترامه بسبب نسبه وحده ، وأحكامه هى وحدها الحجة ، وأن له — حين الحاجة — أن يمتلك مال الواحد من السفلة ، لأن العبد وما ملكت يداه لسيده . وكان محرما على هذه الطبقة المنكودة أن يتصل أحدهم بشىء من الدين أو العلم به ، وإلاّ حلّ به عذاب غليظ ؛ مثل صب الرصاص المصهور فى أذنيه ، وشق لسانه ، وتقطيع جسمه (١)



وإذا كان الهنود ، كما رأينا ، قد فرقوا أمتهم فأقاموا المجتمع على نظام طبقى بغيض فإن اليهود — وهم أصحاب دين سماوى — قد حجروا من رحمة الله الواسعة حين زعموا أنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه ، وحين فرقوا فى تشريعاتهم بين اليهودى وغير اليهودى ؛ فحرموا الربا بشدة بين بنى إسرائيل ، وجعلوه تجارتهم الرابحة الحلال بالنسبة لمن لم يكن منهم ؛ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ! كما أنهم أباحوا استرقاق من سواهم بينما ليس لإسرائيلى أن يستعبد إسرائيليا بحال ما ، بل عليه أن يحسن عشرته ويساعده على الحياة (٢) .

---

(١) يرجع فى هذا إلى ما كتب عن الهند وحضارتها ، ومن هذه المراجع كتاب : « حضارة الهند » للدكتور جوستاف لوبون . ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، نشر الحلبى سنة ١٩٤٨ ، ص ٢٩٥ وما بعدها . وكتاب قصة الحضارة تأليف « ول ديورانت » ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود حـ٣ ص ١٦٦

(٢) يرجع فى هذه التفرقة إلى التوراة نفسها ، سفر التثنية ١٥ : ٧ — ٨ ، سفر اللاويين ٢٥ : ٣٥ — ٣٩ . على أن هذا معروف من تاريخهم وحاضرهم

تجاه هذه النزعات المفرقة للأمة الواحدة من جانب ، وللعالم كله من جانب آخر ، نرى الإسلام يقرر ، فى صراحة لا لبس فيها ، وقوة لا هوادة معها ، « وحدة » الناس جميعا ، لا فرق بين جنس وجنس وأمة وأمة .

لقد محا الإسلام من أول الأمر النعرة الجاهلية ، والتفاخر بالأحساب والأنساب ، إذ أبان أن أصل الناس جميعا واحد ، وهذا إذ يقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، وإذ يقول القرآن الكريم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وإذاً ، فلا تفاضل بالأنساب ، أو الأجناس ، أو الغنى ، أو الجاه ، أو نحو هذا أو ذاك مما تعارفته الأمم أساساً للتفاضل ومقياساً للقيم.

ومن أجل ذلك ، ليس هناك طبقات فى الأمة ، وليس هناك تشريعات للعربى وأخرى لغير العربى ، كما كان الأمر عند اليونان والرومان ، بل العالم كله فى نظر الإسلام من هذه الناحية أيضاً « وحدة » واحدة ، تحكمه شرائع وتعاليم واحدة ، لا فرق بين الخليفة والرعية أو الحاكم والمحكوم .

وقد كان للعبادات المفروضة أثرها القوى فى تدعيم هذه « الوحدة » ، وحفظها من التفكك والانحلال ، فصلوات فى أوقات واحدة للجميع ، وصوم فى زمن واحد للجميع ، وحج فى مكان واحد وأشهر معلومات للجميع .

ويتصل بهذه الناحية الاجتماعية ، ما فرضه الإسلام والأخلاق التى ترجع إليه من الانسجام بين الجسم والروح من ناحية ، وبين نظرة الإسلام للدنيا والآخرة من ناحية أخرى . إن الإسلام أعطى لكل من الجسم والروح ما له من حق ، فلم يقل مع أنصار مذهب اللذة فى الأخلاق بأن اللذة هى الخير الأعلى ، ولم يقل مع الرواقيين بأن هذا الخير هو فى كبح الشهوات إن لم نقل استئصالها ؛ ولم يدعُ إلى ترك الدنيا جملة رجاء ما فى العالم الآخر من ثواب ، بل قال كتابه الحكيم : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » بهذه السياسة الأخلاقية لا يكون المرء مكونا من عنصرين كلاهما للآخر عدو ؛ وهما الجسم والروح ، بل يكون مجموع هذين العنصرين « وحدة » يسعد الإنسان بنشاطها مادامت قائمة ؛ إذ يصل بهذا النشاط إلى الخير الحق الذى يريد .

***

وبعد ! من لنا هذه الأيام بهذه « الوحدة » التى جاء بها الاسلام ؟ من لنا بهذه « الوحدة » لنشعر بأننا مسلمون حقا ، وبأن لنا مكاننا الملحوظ فى العالم ؟

علينا أولا وقبل كل شيء ، فى هذه السبيل أن نوحد التعليم فى مصر والعالم العربى الإسلامى كله بمعنى توحيد أسسه وأغراضه وغاياته العامة ، وأن يقوم هـذا التعليم على أسس إسلامية قومية ، وأن يتولى أمره أناس وهبوا أنفسهم لإيقاظ العالم الإسلامى ونهضة الإسلام . وإلا فكيف لنا أن نرجو شيئاً من الخير من ثقافة تجعل البلد الإسلامى الواحد ، بله الأمة الإسلامية عامة ، عقليات مختلفة لا تدع للتفاهم سبيلا بين بنى الوطن الواحد ! وكيف نرجو الخير من ثقافة يقوم عليها فى كثير من الأحيان من لا يؤمن بالإسلام : روحا وعقلية وحضارة !

إننى غير متشائم ، بل إنى لأرى فى الأفق القريب أمارات نهضة حقة يقوم بها جيل مؤمن حق الإيمان ، وعلى رأسه من الزعماء نفر مخلصون لقوميتهم العربية ووطنهم الإسلامى الأكبر وهذا الجيل — ومنه سيكون الزعماء بفضل الله — نرى طلائعه فى كل مكان ، ونرى الأمة تتطلع إليه وتضع أملها فيه وسيتحقق هذا الأمل إن شاء الله تعالى لخير الإسلام والعرب والعالم كله ، ومن الله العون والتوفيق .



رحمة النبوة ...

انتقل سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، فكان إذا وقع نظره على الفلاح وهو يقاسى البرد فى خدمة الزرع والنخيل شتاء ، أو يعرق فى طلب رزقه صيفا ، يفيض قلبه برحمة لا يفهم معناها كثيرون من هؤلاء المتشـدقين باسم الإنسانية . وقد أوتى فى يوم من الأيام بتمر بعل وبتمر سقى ، فجعل يأكل من البعل ، فقالو له :

يارسول الله : إن هذا أصفى وأطيب .

فأجابهم : إنه لم تجعْ فيه كبد ، ولم يعر فيه جسد .

السياسة البربرية في مراكش

عناصرها ـــ مظاهر تطبيقها

للأستاذ علال الفاسى

حينما احتلت فرنسا بلاد الجزائر سنة ١٨٣٠ وقف رجال الاستعمار الفرنسى يتساءلون عن السياسة التى يجب اتباعها للقضاء على وجود أمة عربية مسلمة فى شمال أفريقيا ، وكيف يمكن أن يطبقوا فى هذا الجزء من العالم الإسلامى ما سبق لهم أن طبقوه فى كندا . لقد كان الاستعمار اللاتينى فى أمريكا الجنوبية ، والاستعمار الإنجليزى فى أمريكا الشمالية هو المثل الأعلى الذى يجذبهم إليه ، إن إبادة العنصر العربى والإسلامى ومحوه من الوجود ، وإحلال العنصر اللاتينى المسيحى فى أفريقيا الشمالية محله عن طريق الهجرة المنظمة خير ما يضمن لفرنسا دوام بقائها ، واستمرار نفوذها حتى يصح لها يوما من الأيام أن تقف بجانب الدول الاستعمارية الأخرى مضاهية مفاخرة بكون استعمارها استطاع أن يقضى على عنصر ويقيم عنصراً آخر مكانه ، وحتى يصح لها كذلك أن تتقدم لرجال الرهبنة المسيحية معتزة بكونها استطاعت أن تحقق لهم ما عجز الفرانسسكان عن تحقيقه من وصية (سان فرانسوا داسيس) للاخوان المحجورين .

ظلت هذه الغاية الدستور الذى تسير عليه سياسة فرنسا الاستعمارية أمداً غير قصير وإليه ترجع كل الاضطهادات التى استعملتها فرنسا فى أوائل احتلالها للجزائر ضد هذا الشعب العربى الباسل ، ولكن سرعان ما تنبه ساستها إلى أنهم إزاء شعب مغربى مخالف فى قوته ومناعته للشعوب التى واجهتها السياسة الاستعمارية الإنجليزية فى أمريكا من هنود حمر وأفارقة سود . أنها إزاء سلالة عربية بربرية أثبتت حصانتها وقوتها على مجابهة كل أحداث التاريخ وفجائع الأجيال ، إزاء أمة استطاعت أن تصمد للزمن وتقاوم الفاتحين دون أن تتأثر بهم أو تتمحى أمامهم وبذلك فليس من السهل على فرنسا أن تحقق برنامجها المنشود لإبادة شعب الجزائر ، خصوصا وأن مصلحتها التى كانت ترمى إلى مد سلطانها على تونس ومراكش تمنعها من أن تسير بغير الوسائل

التدريجية التى تسدل على أعمالها رداء النفاق وغشاء الحيلة ، ونظرت فإذا أفريقيا قريبة من الغرب حيث تتبلور عدة حركات ثورية من شأنها أن تثير الأحقاد وتساعد على المقاومة ، وإذا الأساليب الاستعمارية الأخرى تتطور ، والتنافس الاستعمارى الألمانى والإيطالى يزداد . وكل ذلك لا يشجع على القيام بالضربة الحاسمة التى تبيد أمة المغرب وتفتح الباب على مصراعيه لتحقيق الأحلام الفرنسية الكبرى .

وتمر الأيام وتشعر فرنسا بأن العنصر الأهلى فى الجزائر لا يزداد إلا نمواً ، وعدد السكان لا يزداد إلا تضاعفا ، على الرغم من مظاهر البؤس والجهل والمرض التى صحبت السياسة الاستعمارية الفرنسية فى كل أطوارها ، حينذاك ترجح فى نظر الساسة الفرنسيين الرأى القائل بضرورة تجنيس العنصر المغربى ، وابتلاع الأسرة الفرنسية لهؤلاء السكان الأصليين ذوى المناعة الحصينة ، ولكن هؤلاء لا يملكون الحصانة البدنية فقط ، أنهم يملكون حصانة روحية وعقلية أقوى من المادة نفسها ؛ تلك هى إيمانهم بدين محمد وتشبعهم بثقافة الإسلام ولغته ، وما دام هذان قويين فى نفوسهم فلن يسمح لهم بنبذ جنسية المسلم والدخول فى جنسية أجنبية مستعمرة كافرة ، وهكذا تكونت جرثومة السياسة البربرية قصد تمهيد الطريق لفرنسة المغاربة عن طريق تنصيرهم .

بدأ تطبيق السياسة البربرية فى الجزائر فتجلت معها كل عناصر هذه السياسة التى تنفذ اليوم فى مراكش ، فقد أصدرت الولاية العامة سنة ١٨٥٩ فى الجزائر قانونا بفصل (القبائل) أى العشائر البربرية عن اختصاص المحاكم الشرعية الإسلامية ، مدعية أنها لم تفعل ذلك إلا تحقيقا لرغبات البربر أنفسهم ، ولكن رغبة البربر ظهرت جديا سنة ١٧٨١ حين اندلعت ثورة (القبائل) بقيادة سيدى المقرانى ضد السلطة الفرنسية التى حاربت الشريعة الإسلامية وخانت العهود . وفى ظل انتصار الفرنسيين على هذه الثورة حلت الحكومة العامة كل الجماعات العرفية التى أسستها لتحل محل المحاكم الشرعية ، ثم ألحقت (القبائل) بالمحاكم الفرنسية رأسا فى قرار أصدرته فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٧٤ ثم توسعت فى هذه السياسة فأصدرت فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦ قرارا يجعل كل ما كان من اختصاص المحاكم الإسلامية اختصاصا لمحاكم الصلح الفرنسية . وهكذا أصبح العرب والبربر كلهم يتحاكمون أمام المحاكم الفرنسية إلا فى بعض جزئيات الأحوال الشخصية . فقد أُبقيت بالنسبة للعرب تحت نظر قضاة شرعيين لا حول لهم ولا نفوذ .

وحينما وصلت الجيوش الفرنسية إلى مراكش كان أول عمل قام به الجنرال ليوطى

هو تطبيق نفس هذه السياسة فى ما أخضعه من أجزاء الوطن ، فقد كان همه الأول أن يحافظ على ما سماه (بالإطار المحلى) رغبة فى تجزئة البلاد ، وجلها شيئا فشيئا خارج الإسلام حتى تجد نفسها فى ضمن العائلة الفرنسية ، وقد عبر عن هذا فى رسالة كتبها للكولونيل هنرى سيمون جاء فيها ما يأتى « يجب أن نأخذ بعزم وحكمة المراكشى ولا سيما البربرى على ما هو عليه وفى المستوى الذى يوجد فيه ثم نجذبه تدريجيا دون أن نخرجه من إطاره » ومعنى هذا أن المغربى يجب أن يحتل روحيا وتؤخذ نفسه تدريجيا دون أن يتطور فى مظهره الخارجى بل يبقى فى المستوى الذى هو عليه ، يجب أن يبقى فى تأخره الظاهرى ولكن يفقد معنوياته الباطنة ، ولتحقيق رغبة ليوطى هذه أخذ ضباط الشئون الأهلية الفرنسيون منذ الساعة الأولى كما قال بول مارتى [1] وكذلك المراقبون المدنيون يبذلون كل المجهودات لتفهم العقلية البربرية ، مرضين بذلك رغبة الرؤساء العسكريين وخصوصا الجنرال بيجو . وكان أول مظهر رسمى أعلنته الحماية الفرنسية لهذه السياسة فى مراكش هو مرسوم ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ الذى يعترف لقبائل العرف البربرى بأن تحكم وتنظم طبق قوانينها وأعرافها الخاصة تحت مراقبة السلطات [2] . وقد علق المسيو ريبو على هذا المرسوم بقوله إن مرسوم ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ ذو أهمية عظمى لأنه وضع مبدأ عدم إسلام القبائل البربرية » [3] .

وفى سنة ١٩١٥ أصدر المارشال ليوطى قرارا بتشكيل لجنة الأبحاث البربرية تحت رئاسة الكاتب العام للحماية وعضوية المديرين الفنيين الفرنسيين والمختصين فى السياسة الأهلية ، وغاية هذه اللجنة أن تقوم بالأبحاث التى تسهل على فرنسا تنظيم القبائل البربرية وإدارتها بأسلوب يتفق والمصلحة الفرنسية ، ومنذ ذلك الحين وضع العلماء الفرنسيون أنفسهم تحت تصرف الإقامة العامة مسخرين أبحاثهم غير المخلصة لمصالح السياسة التجنيسية التنصيرية الفرنسية .

وطبعى أن تتناول هذه الأبحاث العناصر الرئيسية الضرورية لتكوين عنصر بربرى مستقل عن العنصر العربى فى داخل مراكش ، فتسير الأبحاث متوازية مع مظاهر السياسة البربرية التى تقوم على ثلاث دعائم . الأولى : ما يرجع للاسلام كدين للبربر .

---

(١) بول مارتى (مغرب الغد) باريس ١٩٢٥ ص ٢١٨ .

(٢) الجريدة الرسمية للمملكة الشريفة ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٤ .

(٣) كتاب الجماعات القضائية البربرية ص ٩٢ .

الثانية : ما يرجع للشريعة الإسلامية كقانون فى محاكم البربر .

الثالثة : ما يرجع للغة العربية وثقافتها فى مناهج تعليم البربر .

وقد بذل الفرنسيون كل مجهوداتهم لإثبات أن الإسلام لم يمس الروح البربرية فى صميمها لأنه لم يجردها من كثير من التقاليد والعادات التى تتنافى مع جوهر الإسلام ، ولأن البربر يقومون بتقديم الهدايا والنذر للصالحين ملتمسين منهم البركة والعون ، ولأنهم يحترمون شيوخ الطريق ويقدسونهم ، وكل ذلك فى واقع الأمر أثر من آثار مسيحيتهم العتيقة لأنه لا يتفق مع إسلام الكتاب والسنة . وقد تجاهل هؤلاء الباحثون أن احترام الصالحين أو زيارة قبورهم لا يمكن أن يقوم حجة على عدم إسلام البربر ، وأخرى على قربهم من المسيحية ؛ لأن هذه التقاليد تتدرج على كل حال ضمن إحدى المذاهب المعترف بها فى الإسلام ، ولأنها ليست خاصة بالبربر بل هى عامة فى كل العناصر والأجناس المسلمة وهى نتيجة لتطور اجتماعى جعل التصوف والطرقية مظهرا من مظاهر الإسلام فى بعض عصوره .

يقول الأب آنج كولير أحد الرهبان الذين استعملتهم الكنيسة لخدمة السياسة التبشيرية بالمغرب فى كتابه (بحث عن روح البربرى المغربى) الذى صدره برسالة تفويض من الجنرال جوان وأخرى من قداسة البابا : « إن الديانة الإسلامية تعمل عملها منذ اثنى عشر قرنا فى المغرب ومع ذلك لم تستطع الاستيلاء على روح الجماعة البربرية التى احتفظت على الرغم من كل شىء على اتجاهها الدينى الجاهلى ، وإن القرآن الذى يقاوم بدعوته كل الأعمال الوثنية والشركية ظهر عاجزا أمام البربر »[1] .

وإذن فالبربرى محتاج إلى دين جديد . وخلق غير خلق الإسلام ، أنه يجب أن يتطور ولكن ليصل إلى المسيحية ثم إلى العائلة الفرنسية ، ويعبر عن ذلك الأب آنج كولير حين يقول فى نفس الكتاب « لابد من قوة دينية أخرى ، لابد من شرارة إلهية وشعلة غير طبعية لمحو الديانة الطبعية البربرية . إن اليهودية والإسلام رفضا قبول روحانية المسيح ولذلك فلن يستطيعا أن يمنحا البربرى هذه الشعلة السامية ؛ إن الإسلام ديانة وضعها الإنسان ، أما المسيحية فهى من صنع الله ، وعلى ذلك فالمسيحية وحدها قادرة على أن ترفع الفرد والجماعة والأسرة البربرية للمساهمة فى الحياة الربانية التى جاء بها اليسوع نفسه مرسلا من عند الأب لنشر روح الحقيقة والعدالة والصداقة والسعادة لبنى الإنسان » .

(١) كتاب بحث عن روح البربرى المغربى ص ٥١٤ .

وليس ما كتبه الأب كولير إلا صدى لما ردده كثير من المؤلفين الفرنسيين وقد آثرنا الاستدلال بكلامه هنا لأنه آخر ما كتب تحت رعاية الجنرال جوان مقيم فرنسا العام فى مراكش إلى ما قبل بضعة شهور ، وذلك دليل على أن فرنسا ما تزال ممعنة فى سياستها البربرية المعادية للاسلام والعاملة على محوه فى مراكش المسلمة ، ولنستمع إلى المسيو لوسيان سان المقيم العام الأسبق فى تونس ثم فى مراكش إذ يقول « إن بلادا كبيرة قد فتحت بعد ليل الإسلام الطويل لتتقبل حياة جديدة وهذا الفتح الجديد يحمل فى أساسه طغراء جيش أفريقيا »(١) .

إن جيش أفريقيا ليس إلا ممهدا للعمل التبشيرى وحامياً له وإلا فالغاية هى التى وضعها المرشال ليوطى وشرحتها مجلة (المغرب الكاثوليكى) « إن المارشال ليوطى يعرف المغرب جيدا ويعرف وسائل التغلغل اللائقة بالمناطق البربرية فهو حينما وضع لهذه القبائل نظاما خاصا قد وحّد بين العرب والبربر فى التعلق بحكم واحد هو فرنسا ، وحينما نفذ رغبة الأسقفية فى الرباط فجعلها تحت إدارة أسقف فرانسيسكى يعاونه مجموعة من الإخوان وسمح لها بإنشاء مدارس خاصة عبّر عن يقينه فى النفوذ الهائل الذى يستطيع الحصول عليه هؤلاء المرابطون المسيحيون فى أوساط المسلمين لا سيما فى اليوم الذى ينجحون فيه بجعل المغاربة يقبلون ما هو روح الحضارة الفرنسية أى النصرانية (٢) .

وحيث اتفقت الإقامة العامة ورجال الكنيسة والجيش على اتجاه واحد هو أن يتطور البربر نحو المسيحية فما هى الوسائل التى يجب أن تستعمل لإنجاح التبشير فى وسط البربر؟ يجيبنا على ذلك مسيو دوجيرك دو لا سال إذ يقول « سنترك المسيحية تؤثر فى النفوس البربرية كما أثرت من قبل فى نفوسنا من غير أن نساعد عملها بوسائل شديدة أو رسمية ولكن بفسح المجال لها ، وعدم تشجيع ما يعاكسها ، وهذا ما يسهل بغير شك تفكيك عرى الكتلة العربية وبالتالى القضاء على الإسلام فى أفريقتنا الشمالية لفائدة حضارتنا وجنسنا (٣) .

ويتضح من هذا كله بجلاء الأسلوب الذى سارت عليه السياسة الفرنسية فى مراكش لمقاومة الإسلام ، ونشر المسيحية كوسيلة للسيطرة ؛ فقد سار الرهبان يؤسسون فى شواهق

(١) مجلة (مغرب) عدد مايو يونية سنة ١٩٣٣ . (٢) (ماروك كاثوليك) عدد نوفمبر سنة ١٩٢٣ . (٣) مجلة تاريخ البعثات السنة الرابعة عدد ٣ الصادر فى سبتمبر ١٩٢٧ ص ٣٢٩

الجبال المغربية العديد من الكنائس والتكايا والمدارس والمستشفيات التى تجود عليها الحماية من ميزانية الدولة بكل وسائل المساعدة المادية والأدبية فى الوقت الذى تحارب فيه المساجد والزوايا ، وتقاوم العلماء والفقهاء وتمنعهم حتى من التجول فى المناطق التى تسميها (بمناطق البربر) لتفسح المجال للأولين وتمنع الآخرين من مقاومة تمسيح المسلمين . وقد بلغ عدد مراكز التبشير الكاثوليكى سنة ١٩٣٣ ما يربو على ١٣٨ مركزا يعمل بها نحو ٣٠٠ عضو تحت قيادة الأسقفية الكاثولكية بالرباط . وفى نفس الوقت أقفلت كثيراً من المساجد والكتاتيب القرآنية فى مختلف جهات البلاد . كما ساعد الاستعمار الفلاحى الرسمى على استيلاء المستعمرين الفرنسيين على مئات الآلاف من الفدادين بما كانت تشتمل عليه من مساجد وأضرحة وكتاتيب انقلبت كلها إلى مرابض حيوانات ومراعى خنازير

« يتبع »



السياسة والدين

إذا فصلت السياسة عن الدين فقدت معناها .

كل طفل فى مدرستنا يدرى الأنظمة السياسية فى الهند ويعرف كيف أن بلاده تتقد بإحساسات جديدة ، بآمال جديدة . . . ولكننا فى حاجة أيضا إلى الضوء الثابت المستقر ، ضوء الإيمان الدينى . وليس الإيمان الذى يتحدث إلى العقل ، بل الإيمان المسطور فى صفحة القلب . يجب أولا أن يرفع الستار عن ضميرنا الدينى ، فإذا وصل الشبان إلى سن الرجولة ، وصلوا إليه مزودين بأطيب زاد ، فيعرفون كيف يجاهدون فى الحياة أما ما يحدث اليوم فهو أن أغلب الحياة السياسية وقف على الطلبة ، ولكنهم حالما يفرغون من الدراسة يغرقون فى نسيان مطبق ويفتشون عن وظائف تعسة ، ناسين كل شىء عن الله . . .

غاندى

(الذى كان يقول إنه لا يؤمن بدين !)

الروح فى الإسلام

للأستاذ أبى الأعلى المودودى
أمير الجماعة الإسلامية فى الباكستان
ترجمه عن الانجليزية الأستاذ محمد فتحى عثمان

ما هو حظ الروح فى الإسلام ؟ وما موضعها فى نظام الحياة كله ؟

من الضرورى كى نفهم هذا أن نقدر كل التقدير الاختلاف القائم بين التصور الإسلامى للناحية الروحية ، وبين نظيره فى الأنظمة الدينية والفلسفية الأخرى . فبدون ذلك كثيرا ما يحدث عند التكلم عن النظام الروحى فى الإسلام ، أن تقفز إلى الرأس مجموعة من التصورات المرتبطة بكلمة « روحى » لتدور فيه بدون قصد ، ويصبح من الصعب على المرء بعدئذ أن يدرك فى هذا التخليط أى نظام روحى يمثله الإسلام فى الحقيقة ، وهو الذى يتدخل — إلى جوار دائرة الروح المعروفة — فى دائرة المادة أيضا ، بل إنه ليعمل على السيطرة عليها .

إن الفكرة السائدة بوجه عام فى عالم الفلسفة والدين أن الجسم والروح فى خصومة متبادلة ، وأن لكل منهما مجالا فى النشاط منفصلا ، وأن ما يتصل بأحدهما مباين ، بل ومناقض لما يتصل بالآخر ، ومن ثم فمن غير الممكن أن يتقدما معا فى وقت واحد . فعالم الجسد والمادة سجن للروح ، وصلات الحياة الدنيا ومتاعها قيود وأغلال لها ، وليست شئون الدنيا وأعباؤها إلا مستنقعا وحما تقتنص فيه الروح بين الشباك فيتوقف ترقيها . ولقد كانت النتيجة المحتومة لهذا التصور هى الفصل بين الروحانيات والدنيويات فى مجريين متباينين . فاقتنع الذين رضوا بالحياة الدنيا منذ البداية بأن الروحانية لن تستطيع أن تسايرهم ، وهذا طرحهم فى هاوية المادية . وأظلم الاجتماع والثقافة والسياسة والاقتصاد وكل مجال النشاط الدنيوى فى الحياة من نور الروح ، وملئت الأرض جوراً . ومن ناحية أخرى ابتكر أولئك الذين ينشدون الروحانية من الطرائق والوسائل لترقية الروح ما كان بعيدا عن هذا العالم تماما . ولم يعد فى الإمكان — تبعا لنظرتهم هذه — أن يجد المرء طريقا ما لرقى الروح يلائم الحياة المعتادة فى هذه الدنيا . فقد كان إضعاف الجسد وتقشفه من الضرورى عندهم لرقى الروح وسلامتها . وابتكروا من ضروب الرياضات الروحية والنسك ما يقتل الرغبة فى الإنسان ، ويصير الجسد فاقدا

للحس ، بل فاقدا للنفع أيضا . واعتبروا الغابات والجبال والأطراف المنعزلة أنسب مكان لترقى الروح ، حتى لا ينفذ التمدن بدفعه وصخبه إلى رياضة الفكر ! ! فلم يستطيعوا أن يتصوروا طريقة ممكنة للرقى الروحى غير أن ينفضوا أيديهم من الدنيا وشئونها ، وأن يفصموا تلك العلاقات التى تربطهم بعالم المادة .

ولقد أدت هذه المعركة بين الجسد والروح فى تطور كل منهما إلى تباين المعانى والمقاصد بالنسبة لتحرى الكمال الإنسانى . فكان هذا عند قوم فى تمام الحياة الدنيوية ، فينبغى للانسان أن يحاط بالمتع والنعم المادية ، وأن يستحيل فى نفسه إلى طبيعة الحيوان ، لا يزيد عن أن يحكى طائراً جميلا ، أو تمساحاً بديعاً ، أو حصاناً فارهاً ، أو ذئباً غالياً ! ! ومن وجهة النظر الأخرى كان الكمال الإنسانى فى إعلاء الروح ، ويعنى هذا أن يحرز الإنسان قوى روحية بعينها ، غاية قصده منها أن يكون مثل جهاز لاسلكى أو تلسكوب قوى ، أو ميكروسكوب حساس!! أو أن يصبح فى بصره وكلامه مايقوم مقام السحر.

وتختلف وجهة النظر الإسلامية فى هذا الصدد عن كل الأنظمة الدينية والفلسفية السائدة فى العالم ؛ فالله قد أقام الروح الإنسانية خليفة له وقلدها سلطة محددة وألقى عليها مسئوليات والتزامات معينة ، ولقد وهبها من أجل القيام بهذا كله إطاراً طبيعياً فى أحسن تقويم . وإنما كانت منحة الجسد من أجل مقصد وحيد ، هو أن تستعمله الروح فى ممارسة سلطتها وأداء واجباتها ومسئولياتها . ومن ثم لا يكون الجسد محبساً للروح ، بل هو « معملها » أو « مصنعها » وإذا كان هناك أى إمكان لنمو الروح ورقيها فإنما يكون فقط عن طريق استعمال القوى والأدوات التى يمدها بها هذا « المصنع » ، وبهذا يكون تمكينها من عرض مقدرتها . فهذه الدنيا ليست — نتيجة لهذا — دار عقوبة يمسك فيها بتلابيب الروح بأية طريقة ، وإنما هى المعمل أو المصنع الذى أرسلها الله فيه لتؤدى وظيفتها وتعمل . ووضع تحت تصرفها من الأشياء مالا حصر له كما خلق الكثير من الكائنات البشرية الأخرى فى هذا العالم معها لتحقيق واجبات هذه الخلافة نفسها . وهيأت مطالب الطبيعة لصالح الإنسان مدنية وثقافة واجتماعا وعلوما فى الاقتصاد والسياسة وباقى ماتنتظمه دائرة الحياة . فلا ينبغى أن يأخذ التقدم الروحى الميسور فى هذه الحياة الدنيا صورة انصراف المرء بوجهه عن « المعمل » أو « المصنع » والتماس العزلة أو الراحة فى ركن من الأركان ، بل لتكن الصورة الوحيدة الواجبة هى المعيشة والعمل فى هذا « المعمل » وتقديم برهان المقدرة ، فهو قاعة اختبار للانسان ، وكل مظهر ومجال للحياة هو — كيفما كان — ورقة أسئلة فى هذا الاختبار . فالمنزل والمدينة والحى والشارع ،

والسوق والمكتب والمصنع والمدرسة والمحكمة ومركز البوليس ومعسكر الجيش ومجلس الشورى ومؤتمر السلم وميدان القتال ، كل أولئك أوراق أسئلة فى مختلف للموضوعات ، يدعى إليها المرء ليجيب. فإن ترك ورقة منها أو لم يجب عن معظمها لما ضمن لنفسه إلا درجة الصفر . وإنما يكون احتمال النجاح والرقى فى إنفاق المرء لكل وقته وتوجيهه كل اهتمامه لهذا الامتحان أو لمحاولة إجابة ورقة الأسئلة المعطاة له جزئيا على الأقل .

وبهذا الأسلوب يرفض الإسلام ويحرم النظرة الزاهدة فى الحياة ، ويرى أن معارج السمو للانسان الروحى ليست فى خارج هـذا العالم بل فى داخله . فالمكان الصحيح للنهوض والنجاح والتوفيق والرقى الروحى إنما يقوم تبعا لذلك فى خضم نشاط الحياة تماما لا على ضفافها . ونستطيع أن نستنتج الآن المعيار الذى وضعه الإسلام أمامنا لنحكم على رقى الروح أو انحلالها . وعلى تفهم حقيقة « الخلافة » الآنفة الذكر يقوم الجواب . فلما كان الإنسان خليفة لله فإنه يُسأل أمامه عن كل نشاطه فى الحياة . وواجبه أن يستخدم كل سلطته التى تقلدها ، وكل الوسائل التى وضعت تحت تصرفه طبقا للمشيئة الإلهية . وينبغى أن يستفيد إلى أقصى حد ممكن من كل العوامل والإمكانيات التى وهبت له فى التماس رضاء الله ، كما ينبغى أن يتخذ لنفسه فى كل صور العلاقات بينه وبين الناس مقاما يرضى الله . وبالاختصار يجب أن توجه كل المجهودات والقوى لتنظيم شئون هـذا العالم وفق حكم الله . وكلما قام الإنسان بهذا الواجب بروح استشعار المسئولية والحرص على الواجب ، وعلى سبيل التعبد والطاعة ، وبقصد التماس مرضاة ربه كلما كان قريبا من الله . والرقى الروحى فى نظر الإسلام مرادف للقربى من الله . وعلى النقيض من ذلك ينأى الإنسان بجانبه عن الله إذا كان خاملا متحايلا غير مقدر للمسئولية مذنبا عاصيا . والبعد عن الله فى لغة الإسلام يعنى الانهيار الروحى للانسان .

إن هذا الإيضاح يبين أن دائرة نشاط رجل الدين ورجل الدنيا [1] هى شىء واحد من وجهة النظر الإسلامية . فكلاهما سيعمل فى « المعمل » نفسه ، بل إن رجل الدين حين يعمل فسوف يكون أعظم شغفا واستمتاعا من رجل الدنيا . وسوف يضطلع رجل الدين بكل مهام الحياة ابتداء من جدران البيت الأربعة حتى ساحة السوق وبكل

(١) استعمل المودودى هذا التعبير (رجل الدين) للدلالة على كل متدين ، لا لتخصيص طائفة معينة من المتدينين كما يفهم من الاصطلاح الشائع ، إذ كل متدين رجل دين . واستعمل تعبير (رجل الدنيا) للكافر الذى لم يرد إلا الحياة الدنيا وعبد مادتها من دون الله (المترجم)

المسئوليات المرتبطة بها ، مثله فى ذلك مثل رجل الدنيا على حد سواء ، وفى حقيقة الأمر بدرجة أكبر . ومن الطبيعى أن ما سيفرق خطا أحدهما عن الآخر هو طبيعة الصلة بالله . فكل ما يقوم به رجل الدين من عمل فهو يؤديه مستشعرا مسئوليته أمام ربه ، مستهدفا رضاه عنه ، مستهديا بشريعته التى رسمها له . وعلى العكس من ذلك كل ما يعمله رجل الدنيا فإن أداءه سوف يكون على نحو يدل على الاستهتار ، وبشعور من عدم مراقبة الله ، وبأساليب هى من خلق الإنسان نفسه . وهذا الفرق البارز يجعل من حياة رجل الدين المادية بأسرها حياة روحية تماما ، فى حين يخبو فى حياة رجل الدنيا نور الروح .

ولنبسط الآن فى إيجاز كيف يجد الإسلام طريقه لرقى الإنسان الروحى خلال دوامة الحياة فى هذا العالم . إن المرحلة الأولى فى هذا الطريق هى العقيدة أو « الإيمان » وهو أن يفيض على عقل المرء وقلبه أن الله هو الرب الملك المعبود ، فيكون ابتغاء مرضاته هو غاية كل مساعيه ، وتكون أحكامه وحدها هى دستور حياته . وبقدر قوة هذه الفكرة وعمقها ، بقدر ما تكون سلامة العقلية الإسلامية حين تتشكل ، وبقدر ما يكون فى وسع المرء أن يأخذ خطواته فى طريق الرقى الروحى بصبر وثبات .

أما مرحلة الطريق الثانية فهى الطاعة . فعلى المرء أن يخلع عن نفسه ذاتيتها تماما ، وأن يقبل طاعة الله عملا بعد أن أعلن إيمانه به اعتقادا . وهذه الطاعة هى ما يسمى « الإسلام » فى لغة القرآن .

والمرحلة الثالثة هى التقوى ، ويمكن تفسيرها بالأسلوب المألوف ، بالقيام بالواجب واستشعار المسئولية . وإنما تكون التقوى فى رجل يسوس نفسه فى كل خطوة من حياته وهو موقن تماما بأنه محاسب أمام الله عن أفكاره وأقواله وأفعاله ، وتكون فى الكف عن كل ما نهى الله عنه ، وفى الاستعداد للاضطلاع بكل ما أمر به ، وفى العيش طوال العمر على علم بين بالحد بين الحلال والحرام ، والصحيح والخطأ ، والخير والشر .

وآخر المراحل وأسماها هى الإحسان ، ويعنى أن تكون رغبة الإنسان متحدة مع إرادة الله . فكل ما يحبه الله يجب على المرء أن يعزه ، وكل ما يبغضه الله يجب عليه أن يمقته من أعماق قلبه . وليس على الإنسان أن يحذر المآثم التى لا يحب الله انتشارها فى أرضه فحسب ، بل عليه أن يبذل كل قوته ونشاطه لاكتساحها من على ظهر الأرض كما أنه يجب أن لا يقنع بمجرد تحلية نفسه بالفضائل التى يريدها الله منشورة على أوسع نطاق فى الدنيا ، فإن على كل واحد أن يعمل لتشييد صرحها وإذاعة كلتها ولو كلفه

ذلك حياته . وإن الإنسان إذ يصل إلى هذه المرحلة فإنه يبلغ ذروة القربى من الله ، ومن ثم تكون هذه غاية الرقى الروحى للانسان .

هذا السبيل للرقى الروحى لا يقصد به الأفراد وحدهم ، بل الجماعات والأمم على حد سواء . فمثل الجماعة مثل الفرد ، تصل بعروجها فى مدارج الإيمان فالطاعة فالتقوى إلى ذروة الإحسان . وكذلك الدولة بكل جهازها الإدارى تغدو مؤمنة فمسلمة فتقية فمحسنة وإنما تحقق مقاصد الإسلام فى الحقيقة على وجه سليم حين تسلك الجماعة بأسرها هذا السبيل وتبرز إلى حيز الوجود العالمى دولة التقى والإحسان .

ولنلق الآن نظرة على نظام الرياضة الروحية الذى اختطه الإسلام لإعداد الفرد والمجتمع على هذا الأسلوب . ويقوم هذا النظام على أربع دعائم .

فدعامته الأولى هى الصلوات التى تذكى ذكر الله فى فكر المرء خمس مرات كل يوم ، وتذكره بخشيته وتملؤه بمحبته ، وتدفعه إلى تذكر الأوامر الإلهية المرة تلو المرة ، وتروضه على طاعة الله . هذه الصلوات لا تؤدى فرادى من كل على حدة ، بل الأولى أن تؤدى مع الجماعة ، حتى تعد هذه الجماعة — بل والمجتمع كله — لسلوك سبيل الرقى الروحى.

والصوم هو الدعامة الثانية ، وهو الذى يروض المسلمين أفرادا وجماعة على التقوى شهرا كاملا فى كل عام .

والدعامة الثالثة هى الزكاة التى تنشر معنى التضحية المالية والتعاطف والتعاون بين مجموع المسلمين . والناس فى هذه الأيام يأخذون الزكاة على تأويل خاطىء كضريبة فحسب ، رغم أن الروح التى تكمن وراء أدائها مخالفة تماما لتلك الروح الكامنة من خلف دفع الضرائب . فمعنى الزكاة الحقيقى هو النماء والتطهير . ويريد الإسلام باستعمال هذه الكلمة أن يدفع إلى قلب المرء أنّ العون المالى الذى سيعود على إخوته سوف ينهض بروحه ويطهر أخلاقه حين يستلهم الحب الخالص لله .

ورابع الدعائم هو الحج الذى يهدف إلى عقد أُخوة عالمية بين المؤمنين على أساس عبادة الله . وإنه ليبلغ الأوج فى تلك الشعيرة التى ظلت الأمة تلبى بها نداء الحق على مرّ القرون ، وسوف تمضى على تلبية هذا النداء إلى الأبد إن شاء الله .

نظرات في التربية

للأستاذ عبد العزيز عطيه

المراقب المساعد بمنطقة دمنهور التعليمية

فى شهر ربيع الأنور سنة ١٣٦٧ الموافق يناير سنة ١٩٤٨ صدر العدد الثالث من مجلة الشهاب الغراء لصاحبها ومديرها « حسن البنا » المرشد العام للاخوان المسلمين طيب الله ثراه ورضى عنه وأرضاه . وفى هذا العدد بدأت أكتب « نظرات فى التربية » بناء على توجيه منه ، وتلبية لرغبته فى طرق أبواب جديدة رأى أن القراء فى حاجة إليها . والشعب فى حاجة ماسة إلى معارف تأخذ بيد الأبناء والآباء والأمهات والمربين عندما يخوضون معركة الحياة ويقوم كل بنصيبه فيها . وعندما أراد المبطلون (عليهم لعنة الله) أن يطفئوا نور الله بأفواههم ؛ فأصدروا أمراً بحل الإخوان المسلمين ومصادرة الشهاب ، وغمسوا أيديهم فى دم الشهيد الزكى كانت الشهاب ومايتبعها فى مهب العاصفة فاقتلعتها الأنواء ، واصطلحت عليها الخطوب ، وأصبحت ذكرى ؛ جفت الأقلام وطويت الصحف . إلا أن الله الذى وعد الحق أن يزهق الباطل ، وأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون قد قشع الغاشية ، وبدد الظلم ، وعاد الإخوان أقوى مما كانوا ، وأعيدت إليهم دورهم ومابقى من أموالهم ، ولم ينقصهم إلا رائدهم الذى عز عليهم فقده . على أن الله سبحانه (على سنته فى خلقه) قد عوضهم فى فقيدهم خيرا إذ وفقهم إلى اختيار مرشد لهم ملء السمع والبصر ليقود الكتيبة ويحمل المشعل والله فى عونه .

وفى سحر هذه الليلة التى كان الإخوان ينتظرون فيها أن تضحى شمس الحق وترتفع رايته قد بدأت مجلة « المسلمون » تنبت مع الفجر وتلبس حلته وتكتسى بها . فصدر العدد الأول منها فى ربيع الأنور سنة ١٣٧١ ديسمبر سنة ١٩٥١ . وقد ترسمت خطا شقيقتها الكبرى « الشهاب » التى وأدها الظلم شابة مكتملة . ثم هى تلمس عقدها فى نحرها فلا تجد حبة منه كانت تراها فى نحر تلك الشقيقة حتى تطلبها فنسرع ملبين شاكرين نحملها باليمين لتكون فى سلكها النظيم عنوانا من عناوين العدد الثالث « نظرات فى التربية »

ولعل مَن قرأ ما نشر فى الأعداد : الثالث والرابع والخامس من الشهاب يذكر أننا قد بينا أهمية التربية فى العصر الحديث ، وضرورة اتساق التربية الإسلامية والتربية الحديثة معا فى بلاد الإسلام ؛ ليمكن الانتفاع بتراثنا العظيم الذى لا غنى عنه فى التربية

مختلطا بأصلح ما وصل إليه العقل الإنسانى فى العلم الحديث ، لنساير العصر فى الرقى الفكرى مع الاحتفاظ بما لنا من عقائد وعادات وتقاليد إسلامية . وذكرنا أن الإخوان المسلمين الذين قبضوا على ناصية التوجيه الصحيح فى هذا البلد ؛ ليوجهوا الشباب الوجهة الصالحة إنما هم فى حاجة ماسة إلى تعرف الطرق الواضحة ، والسبل الموصلة إلى تقويم نشء هذه الأمة تقويماً يصلح ما أفسدته الأيدى العابثة بتراثها وأبنائها وهم يحاولون محاولات قوية بقدر ماتسعهم أموالهم ورجالهم .

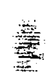
ثم أوردنا بعض آراء المربين فى بدء تربية الطفل ، وضرورة العناية به قبل الولادة ، وبينا أن انفعالات الأم وهى فى حملها تؤثر فى الطفل تأثيراً شديداً . كما بينا أن إسرافها فى شهواتها خارج بيتها وداخله يعرضها لأقسى الانفعالات مما تورثه طفلها . وبينا أن الأخلاق الإسلامية واتباع تعاليم الإسلام تنأى بالأم عن هذه الانفعالات ، وأن الهدوء فى المنزل ، وحسن علاقة الزوجين يهىء بيئة صالحة للأطفال ؛ إذ يقتدون بوالديهم فى حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم فيخرجون على هدى وصلاح . ثم تكلمنا عن خلقة الطفل المزود بالغرائز والميول والوجدانات ؛ لنوضح بعض الإيضاح ما فطر عليه الأطفال لمقابلة هذه الحياة ، وبينا آراء العلماء فى فطرته من خير أو شر ، ومدى مايستطيع المربى أن يصلحه من قوى الشر ، وأن يبثه من طرق الخير ، وكيف يسير فى ذلك متتبعا غرائز الأطفال وطبائعهم . وقد أوضحنا آراء العلماء فى ذلك ثم فصلنا بينهم بما أتى به القرآن والسنة فى ذلك : « وهديناه النجدين » ، « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه » . ثم تعرضنا إلى بحث عام فى الغريزة والميل ، ووضحنا رأى العلماء فى الغرائز من حيث تكوينها وعملها ، وبينا أن الميول تتكون من الغرائز ، وأن لها أنواعا ثلاثة هى الميل الإدراكى ، والميل الوجدانى ، والميل النزوعى

وللغرائز أقسام فمنها مايظهر بمجرد الولادة : كغريزة الحركة وحب الطعام ، ومنها ما يتأخر كثيراً أو قليلا : كغرائز التقليد والاستطلاع والإحراز والدفاع ، والغريزة الجنسية التى قد تتأخر إلى أربعة عشر عاما . ومن الغرائز مايضعف شيئا فشيئا بتهذيبه ، وتكوين عادات مكانه تتفق وما للجمهور على الإنسان من حق وواجب : كاحترام ملك الغير أو التأدب فى حضور الكبار حتى يكف الطفل عن الهذر ، ومن الغرائز ما يخلق قويا فيستبق بقوته بل وينمى حتى تؤدى الغريزة مهمتها فى تكوين الطفل كما فى الحركة ، وحب الاستطلاع ، والتغلب على الصعاب والدفاع . ومن الغرائز

مايخلق ضعيفا لايقوم بمطالب الحياة . وعمل المربى فى هذا الضعف تقويته وتنميته بأنواع العلاج النفسى حتى تقوى الغريزة أو الغرائز الضعيفة .

وكما نرى أشجار الحديقة المتفقة النوع والغرس والرى والتعهد مختلفة فى نموها وثمرها ؛ فكذلك الأطفال يختلفون فى نموهم الجسمى والعقلى والخلقى . ولكننا لا نستطيع ترك الضعيف للطبيعة فيتخلف كثيراً عن ركب الحياة بل الواجب بذل العناية الشديدة فى علاجه وتكميل النقص فيه ليصل إلى درجة فى الحياة يستطيع بها أن يقوم بنفسه فى معاشه .

ولهذا كان واجب المربى والمربية فى المدرسة ثقيلا عظيما ، وكان المعلم حريًّا بأن يختار ممن لهم دراية بفن التربية ، وإلا فإذا كان الحلاق يؤتمن على أن يعمل جراحة فى البطن أو العين مثلا فأننا نأمن أى متعلم أن يقوم بتعليم الأطفال وتربيتهم ومن هنا نستطيع أن نحكم على مقدار ماتتعرض له تربية هذا الجيل من الخطر العظيم الذى يتولى التعلم فيه فى الرياض وفى المدارس الابتدائية قوم لاصلة لهم بمهنة المعلم .



وفى مقال تال سنتكلم إن شاء الله فى التربية والتعليم والفرق بينهما ومهمة المعلم والمربى .

« حتفها فى سِمنها »

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى : أما بعد ؛ فإن أسعد الرعاة عند الله من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته . وإياك أن تزيغ فتزيغ عمّالك ؛ فيكون مثلك عند الله مثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتعت فيها تبتغى بذلك السِّمَن ، وإنما حتفها فى سمنها والسلام ؟

مع العارفين

عتبة الغـــــلام

(٢)

والتاريخ لم يفرغ بعد من حال عتبة الغلام ، فما يزال لديه مزيد من تلك الصور المشرقة ، صور الوجدان الواله المنجذب إلى جمال الحق . . . لقى عتبة صديقاً له فقال : كدت لا ترانى يا أبا أنس ! ! قال أبو أنس : وما ذاك فإنى أرى وجهك وصوتك لا يثبتان على حال ؟ . . . قال : كادت الأرض تخسف بى ! ! قال : وما جنايتك ؟ قال : رأيت أحد إخوانى فقال لى ياعتبة : أنت فى كساءين وأنا فى كساء واحد ؟ . . فوالله لولا أنى أعطيته لما ظننت أنى أنجو من الأرض وهى تميد بى تريد أن تأخذنى كما أخذت قارون من قبل !

وهل يريد أخى القارىء أن أحدثه عن ذلك الضمير المرهف الذى زلـزل الأرض بقدمى صاحبه ، لا لجناية جناها بل لأنه بدا فى ثوبين وصاحبه فى ثوب واحد ؟ . . . إن كل حديث عنه لا يبلغ حقيقته أبداً ؛ ولقد بدت صورة هـذا الضمير للبصائر تهز الـكيان وتثير رواكد النفس ، وتعرض على ذهن القارىء حال أولئك الغلاظ الذين لا يكتفى أحدهم أن يجمع لنفسه كل شىء ، وليس لأخيه شىء . . . بل يحوز إلى جانبه كل شىء ، ويذود أخاه أن يكون له شىء . . . لا يكتفى أحدهم بذلك ولا يطيب عيشه حتى يمتع نفسه برؤية الفارق الشاسع بينه وبين أخيه المحروم ، فإن نفوس هؤلاء الأنانيين تتغذى من رؤية هـذا الفارق بألذ مما تتغذى به معداتهم وأبدانهم . . وليس أشهى فى غرور أحدهم إذا خرج على الناس فى زينته من أن يرى وجوه الذل تعنو لـكبريائه ، ونظرات البؤس والفاقة تنقل إلى سريرته ما تشتهاه خواطر المحرومين ؛ فيفرح قارون الصغير بما فرح به قارون الـكبير يوم : « قال الذين يريدون الحيـاة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون »

بذلك الضمير الحى القوى تنعقد قيمة المرء ، فانظر ماذا يساوى عتبة الغلام بين الرجال ، أو بين عظماء الرجال بهذا الضمير ؟ لقد كان ضميراً متعدد نواحى الحساسية ،

فما تراه إلا متجاوبا مع فضيلة من الفضائل أو فزِعا وجلا مما حسبه تفريطا زلت به قدمه .
لقيه عبد الواحد بن زيد مرة فى رحبة القصابين فى يوم شات شديد البرد فإذا هو يرفَضُّ عرقا وقد أطرق برأسه لا يرفعه !! قال عبد الواحد فدنوت منه وقلت : عتبة !!

قال : نعم

قلت : ما شأنك

قال : خير

قلت : مالك تعرق فى مثل هذا اليوم ؟

قال : خير ! !

قلت : نشدتك الأنس الذى بينى وبينك والإخاء ألا ما أخبرتنى .

قال : ذكرت والله ذنبا أصبته فى هذا المكان فحضرنى ما ترى وأنا تحت عين الله .



ترى ماذا تكون العظمة إذا لم يكن أمثال هؤلاء هم العظماء ؟ إن الإنسانية بحاجة إلى تقرير موازين صادقة لمعانى العظمة ، موازين تنفى الزيف فلا تقوم لشىء من تهريج المهرجين وجرأة السفاحين وقوة الغاصبين وشهرة المضلين من أهل الرياء والكذب والغدر ، ولا تحفل إلا بهذا اللباب الذى يقوم على مجاهدة النفس والاستشراف إلى الحقائق العليا . وتسألنى ماذا أُسند إلى هـذا الرجل من مناصب أو ماذا تقلب فيه من أسباب الثروة ؟ هل كان قائداً مظفرا أو كان والياً تحدث الناس بمجد رياسته أو وزيرا فى مقر الخلافة قصده وجوه الناس أو إماما فى العلم تزاحم العلماء والطلاب فى مجلسه ؟ فإذا لم يكن واحدا من هؤلاء فهل كان من أرباب الضياع الواسعة أو صدور التجار الذين كانت لهم قوافل السفن غادية ورائحة كم شركة أقام أو كم مصنعاً أنشأ ؟ إننا اعتدنا أن نسمى كل هؤلاء عظماء وليس فى موازيننا ما يحفل بغير النجاح فى تلك الميادين فأى شىء كان عتبة الغلام من ذلك ؟ . . . نعم حدثنا أبو عمرو البصرى قال : « كان رأس مال عتبة فَلسا واحداً فيشترى به الخوص فإذا عمله باعه بثلاثة فلوس . ففلس يتخذه لرأس ماله وفلس يشترى به شيئاً يفطر عليه وفلس يجعله فى سبيل الله ، يتصدق به أو يعين على نائبة » .

وليس لنا أن نعجب بعد ما قدمناه كيف حفل التاريخ بصانع الخوص ورأى صورته جديرة بالتسجيل؛ فتاريخ تلك الحقبة لم يكن كتاريخنا الحالى لا ينظر إلا إلى بهجة المنصب وقوة الجاه وذيوع الشهرة وسعة الثراء والمال بل كان يحفل أول ما يحفل بحقائق النفوس ومعادن الطباع وروعة المجاهدة والتزام شرائط التقوى ولا يحد مظهراً من المظاهر إلا إذا

كان ممدوداً بسر من أسرار عظمة الروح . لقد طالما ألحى عتبة على نفسه بالتخفى وخمول الذكر فراراً من فتنة النظر إلى غير الله فكان الذى عمله سبب ذيوع ذكره وسعى أشراف الناس إليه وذوى الرياسة والجاه منهم؛ قال سليمان[1] بن على لبعض أصحابه : ويحك أين عتبة هذا الذى أفتتن به أهل البصرة ؟ . فخرج به حتى أتى بعض الأماكن فوقف به على عتبة وهو مطرق الرأس ينكت الأرض بعود فى يده وهو لا يشعر بمكانهم منه .

قالوا : السلام عليك ياعتبة .

فرفع رأسه فنظر فقال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

قالوا : كيف أنت ياعتبة .

قال : بين حالين لا أقر على حال منهما : بين جحيم أفزع منه ونعيم لم أقدم له شيئاً فإذا قدمت على الله فما عسى أن يكون قدومى . ثم نكس رأسه وجعل ينكت الأرض : فقال سليمان لصاحبه : أرى عتبة قد أحرز نفسه ولا يبالى ما أصبحنا فيه وأمسينا . . . ثم قال ياعتبة قد أمرت لك بألفى درهم ، قال : أقبلها منك أيها الأمير على أن تقضى لى معها حاجة قال سليمان وقد سره ما سمع من عتبة نعم ما حاجتك ؟ قال حاجتى أن تعفينى منها وتجعلها إن شئت فى مصالح المسلمين ! ! قال سليمان قد فعلت ثم عاد أدراجه مع صاحبه وهو يقول أزاح عتبة القناع عن قلبى فإذا الذى نحن فيه هين وإذا الذى كنا نستطيل من الأجل حاضر أمام أبصارنا ! !

وحق لمن يجلس إلى هذا الزاهد التقى أن يفيق من غفلته وتنتصب فى ذهنه معالم الآخرة ، فأنه ما رأى لنفسه فضل عبادة قط فيركن إليه ولا غابت القيامة عنه فيبطىء الخطا؛ بل هو الحزن العميق على ما يرى من تقصير نفسه فلا يقر على قرار وفيح جهنم يفور بين أذنيه وعينيه فلا ينجيه إلا الفرار المتواصل إلى الله . . . قال عبد الواحد بن زيد صديقه الحميم لقد كنت أسهر ، ما يسهرنى إلا التفكير فى أمر عتبة وطول حزنه ولقد كلمته ليرفق بنفسه فبكى وقال : إنما أبكى على تقصيرى . . . وقال : كان عتبة يزورنى وربما بات عندى — فبات عندى ليلة فبكى من السحر بكاءً شديداً فقلت

(١) سليمان بن على بن عبد الله بن عباس عهد إليه فى مبدأ الدولة العباسية بإقرار دعائمها فى البصرة والتمكين لها فقتل كل من حامت حوله شبهة الهوى لبنى أمية أو عدم الإخلاص لبنى العباس حتى أفنى خلقاً كثيراً وعلى ذلك يكون عتبة عاش أواخر عهد بنى أمية وصدر الدولة العباسية .

ارفق بنفسك ياعتبة فما هو إلا أن مال ليسقط فاحتضنته فجعلت أنظر إلى عينيه تتقلبان فناديت : عتبة عتبة . . فأجاب بصوت خفى : إن ذكر العرض على الله قطع أوصال المحبين ! . . .

تراك يامولاى تعذب محبيك وأنت الرؤوف الرحيم .

ولقد أسلفنا إليك بعض الحديث عن جهاده وما كان فى هذا الجهاد إلا آية من آيات الله فى قوة النفس وثبات الجنان لا من حيث كثرة الذين قتلهم ، فإن أحدا لا يعلم كم قتل ، بل لما أحاط به من الأسرار وغرائب الأحوال .

قال مخلد بن الحسين : جاءنا عتبة ونحن غزاة بشمال الشام فقلنا له : ما جاء بك ؟

قال : جئت أغزو . . . رأيت فى النام أنى آتى المصيصة فأغزو فأستشهد . . .

قلت : ما عن هذا أسأل ، ولكنا نصاول بنى الأصفر ، وهم قوم أشداء ، لا يغنى فى نزالهم شبح أنضته العبادة والسهر مثلك ، ولا أحسب أن عودك هذا الخفيف الشاحب يستقر على صهوة جواد إذا كرَّ به وفر ! !

قال مخلد : فوالله لقد نظر إلى نظرة أصابت قلبى كأنها سهم . وتلون وجهه وقال : يا ابن الحسين . ليس العجب أن ينفر الهزيل الشاحب لقتال أعداء الله ، وإنما العجب أن ينفر إليهم مشوش الإيمان زائغ القلب والعقل ، وإن النصر لا يبطىء عن جيش من جيوش الله إلا أن يكون فيه من غره شيطانه عن ربه ؛ يا ابن الحسين لو أننا نقاتل القوم بمثل إيمانهم لكان من أحمق الحمق أن نلقاهم وعددنا قليل ، وسلاحنا كليل . ولكن شتان ما إيمان وإيمان ؛ ويارب نفس رمقت جلال الله فأرحض عنها غرورها ؛ فلم تشهد إلا فقرها إليه وعجزها بين يديه ، فأمدها بسر من بأسه ، وأيدها بكوكبة من جنده ؛ فإذا هى فى الميدان يصول فيها سر الله ويجول ، فوالله لأن يثبت الكافر لجبل ينقض عليه أهون من أن يثبت لضربة من ضرباتها . . . وإنك لن تنصر الله يا ابن الحسين فى معركة حتى تنصره فى نفسك بتغليب أمره على هواك ؛ فإن كنت فارس هذه المعركة فأنت فارس الأخرى بإذن الله ، فانظر ماذا يغنى لحمك وشحمك إذا أنت خذلته فى الأولى وجئت تطلب نصره فى الثانية ، وهو الذى جعل هذه بتلك جزاء وفاقا . ووعداً حقاً ، فى قوله سبحانه : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » قال مخلد فوالله لقد انكسرت لما قال ، وكأنما أهدى إلىّ نفسى فقلت له : يرحمك الله يا أخى ، إنما كنت أمزح .

ارفق بنفسك ياعتبة فما هو إلا أن مال ليسقط فاحتضنته فجعلت أنظر إلى عينيه تتقلبان فناديت : عتبة عتبة . . فأجاب بصوت خفى : إن ذكر العرض على الله قطع أوصال المحبين ! ...

تراك يامولاى تعذب محبيك وأنت الرؤوف الرحيم .

ولقد أسلفنا إليك بعض الحديث عن جهاده وما كان فى هذا الجهاد إلا أية من آيات الله فى قوة النفس وثبات الجنان لا من حيث كثرة الذين قتلهم ، فإن أحدا لا يعلم كم قتل ، بل لما أحاط به من الأسرار وغرائب الأحوال .

قال مخلد بن الحسين : جاءنا عتبة ونحن غزاة بشمال الشام فقلنا له : ما جاء بك ؟

قال : جئت أغزو . . . رأيت فى المنام أنى آتى المصيصة فأغزو فأستشهد . . .



قلت : ما عن هذا أسأل ، ولكننا نصاول بنى الأصفر ، وهم قوم أشداء ، لا يغنى فى نزالهم شبح أنضته العبادة والسهر مثلك ، ولا أحسب أن عودك هذا الخفيف الشاحب يستقر على صهوة جواد إذا كر به وفر ! !

قال مخلد : فوالله لقد نظر إلى نظرة أصابت قلبى كأنها سهم . وتلون وجهه وقال : يا ابن الحسين . ليس العجب أن ينفر الهزيل الشاحب لقتال أعداء الله ، وإنما العجب أن ينفر إليهم مشوش الإيمان زائغ القلب والعقل ، وإن النصر لا يبطىء عن جيش من جيوش الله إلا أن يكون فيه من غره شيطانه عن ربه ؟ يا ابن الحسين لو أننا نقاتل القوم بمثل إيمانهم لكان من أحمق الحمق أن نلقاهم وعددنا قليل ، وسلاحنا كليل . ولكن شتان ما إيمان وإيمان ؟ ويارب نفس رمقت جلال الله فأرحض عنها غرورها ؟ فلم تشهد إلا فقرها إليه وعجزها بين يديه ، فأمدها بسر من بأسه ، وأيدها بكوكبة من جنده ؟ فإذا هى فى الميدان يصول فيها سر الله ويجول ، فوالله لأن يثبت الكافر لجبل ينقض عليه أهون من أن يثبت لضربة من ضرباتها . . . وإنك لن تنصر الله يا ابن الحسين فى معركة حتى تنصره فى نفسك بتغليب أمره على هواك ؟ فإن كنت فارس هذه المعركة فأنت فارس الأخرى بإذن الله ، فانظر ماذا يغنى لحمك وشحمك إذا أنت خذلته فى الأولى وجئت تطلب نصره فى الثانية ، وهو الذى جعل هذه بتلك جزاء وفاقا . ووعداً حقاً ، فى قوله سبحانه : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » قال مخلد فوالله لقد انكسرت لما قال ، وكأنما أهدى إلى نفسى فقلت له : يرحمك الله يا أخى ، إنما كنت أمزح .

فقال أحدنا : نرجع ، فقال عتبة : والله ما نكون أغنينا شيئا ، إنما أرسلنا قومنا لنأتيهم بنبأ العدو . . . فمضينا ، حتى أبعدنا فى الدرب فإذا كمين لهم قد خرج علينا فجأة ، فاستقبلناه بالتكبير والسيوف حتى أفنينا أكثره ، وكان مَن وراءهم من القوم قد سمعوا تكبيرنا فجاءوا لنجدتهم .

وسكت الرجل برهة كأنما ازدحمت صور الكلام فى ذهنه ، فهو لا يدرى بأيها يبدأ ، ثم استأنف يقول : إنما رأيت من أسرار ذلك اليوم مايشبه المعجزات ، فإن ذلك الجمع المنحدر علينا من وراء التلال قد انفرط عقده قبل أن يصل إلى بطن الوادى . . وقد استقبلناهم بتكبير خلنا أطراف الآكام تهتز به ، وما لبثنا أن سمعنا عتبة يدعو بدعوة نبض لها قلب السماء : اللهم أرزق عتبة اليوم شهادة فى سبيلك تقر بها أعين المسلمين ! ! فدعا الكل بدعوته . . . وتلعثم الرجل قليلا واختنق بالبكاء . وقال : واخزياه ؛ كلهم دعا لنفسه بالجنة فنالها إلا أنا ، لما سبق علىّ من الشقوة . . . واسترد نفسه وعاد يقول : لقد رأى الكفار قتلاهم فى بطن الوادى فأخذهم الرعب وسمعت أحدهم يقول وهو يولول : ما هؤلاء بشرا . . . لقد ملأوا الوادى بجثث القتلى منا . . ورأى فريق منهم فلول الكمين وهم يتأودون بضرباتنا فيصعدون فى الرُّبا هربا ، فانقلبوا يسابقونهم عدوا وإدبارا . . وطائفة منهم ثبتت ما أحسب أنها ثبتت إلا لينفذ الله ما دعا به الشهداء لأنفسهم ، فحمل عليهم عتبة ، وصدقنا الحملة معه ، وتكاثر القوم علينا وجعلوا يحيطون بنا ؛ فكان عتبة يهدُّ فيهم بسيفه هدًّا حتى أوهن بأسهم وأذهب عددهم . . فكانوا يتحاشون أن يلقوه وحدانا ، فجعلوا يتكوكبون عليه كوكبة بعد كوكبة ولكنهم ما كانوا يلقونه حتى يتطايروا من أمامه تطاير البعوض فلما استحرّ فيهم القتل كمن له سبعة نفر منهم خلف صخرة فى جانب المعركة يتلمسون الغرة منه .



ونهد عتبة إلى كوكبة بعيدة كانت تحرّش عليه ، فانقض على رءوسهم كالقضاء فأفناهم فى مثل رجع الصدى ، وبينما هو يأتى على بقيتهم رأى واحدا من أصحابه ينحرف من فئة عَـلَـتْـهُ بأسيافها ، فما أن رآه عتبة حتى خفّ لنجدته فمر بالصخرة وهو لا يرى ما وراءه ، فما كاد يوليها ظهره حتى رأى الكمين أن الفرصة قد أمكنته ، فخرجوا من مكمنهم ، وهز كل منهم حربته ، حتى إذا رضى مكانها فى يده ، أرسلها الأول إلى ظهر البطل فمرقت فى جوفه حتى أحس سنانها بين ثدييه ، فوالله لقد كبر لها

تكبيرة حسدته عليها الملائكة : الله أكبر : فزتُ وربِّ الكعبة ، وتتابعت بقية الطعنات السبع حتى خر صريعا . . . وما هو إلا أن رآه أصحابه مضرجا بدمائه حتى تواثقوا أن يموتوا على ما مات عليه ، فأقبلوا على أعداء الله يحسونهم بإذنه فيقتلون ويُقتلون وكلما توجهت إلى أحدهم طعنته القاتلة صاح لها مكبرا : الله أكبر. فزتُ وربِّ الكعبة ، وما زالوا يسقطون واحدا تلو الآخر حتى إذا سقط آخرهم لم يبق فى المعركة من القوم إلا فلول مجهدة .

قال مخلد : وسكت الرجل عند هذا الحدوالقوم فى رهبة مماسمعوا ، وانتدِب جماعة منا لدفن شهدائنا فمضيت معهم وكان عتبة أكبر همى . فأخذت أبحث عنه فلم أعثر له على أثر فقلت فى نفسى : يا سبحان الله ! ! أترى الله حقق له ما كان يدعوا به : « اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطون السباع .. ؟ » يرحمه الله ! !



غنى ثم طار . . . . .

« هذا الإنسان ! حياته على الأرض مثل طائر عذب النغم وقف ساعة على غصن : غنّى ثم طار . . . . . »

« إقبال »

في مجازر الحرية :

الفدائيون

« إلى أرواح الشهداء الخالدين . . . »

« وإلى شعب النيل في صراعه ضد الأمبراطورية الآفلة . . . »

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

نُفِخَ الصُّورُ ! ! فانتبهْ مِنْ سُبَاتِكْ   أيُّهَا الشعب .. تلك أُولى حياتِكْ !

شابَ فيكَ الرقادُ ، واختَبَل المَوْتُ ،   جُنوناً ودهشةً مِن مَوَاتِكْ

كلَّما هبَّتِ المقاديرُ تُحْييكَ ،   تجَبَّرْتَ .. يا لَبَأْسِ رُفاتِكْ !

زمجرَتْ حولكَ الأعاصيرُ ، وانشقَّ   دُجاها ، وما زِلْتَ غارقاً في صِماتِكْ

وتقولُ الدماءُ ما قالتِ الرِّيح   لِقَبْرٍ مُبَعْثَرٍ في فَلاَتِكْ :

شَهْقةُ النارِ .. وانتِفاضُ الرَّدى البا   كي عَلَى كل ذَرَّةٍ فِي حَصَاتِكْ

ولَظَى السَّوْطِ .. وهو تَسْبِيحُ عَبْدٍ   شَرِبَ الرِّقَّ كلَّه مِن صَلاتِكْ

والمساميرُ ، والسَّلاسِلُ ، والأغلالُ ،   والقيْدُ .. كلها مِن سُقاتِكْ

والأسَى ، والضَّبابُ ، والعَتْمَةُ السَّوْداءُ ،   وَالهوُّ .. تلك رُؤْيا رُباتِكْ !

أطبقَتْ حَوْلكَ الزَّعازعُ والأهوالُ ..   عطْشَى ، تُريد بعضَ الْتِفاتِكْ !

دَمِّرِ القبرَ .. أَزْجُرِ الموتَ .. أَخْرُجْ   عن سكونٍ يَنُوحُ في ظُلُماتِكْ

وَتحرَّكْ ! ! فإنَّ رَكْباً مِن الغيلان   جَوْعانَ في حَشا طُرُقاتِكْ

دَسَّ في مَحْجَرَيْهِ سَبْعين عاماً   لَمَّها مِنْ أساكَ ، مِن نَكَباتِكْ ..

مِنْ دُمُوعِ الجِيَاعِ ، أَهْلِكَ .. مِمَّنْ أنا منهمْ صريعُ تلكَ الْمَفاتِكْ
مِن حديد الفؤوس تَضْرِبُ فى الحَقْلِ ، لِتُجْرِى له ثمارَ نبـاتِكْ
مِنْ جَبِينٍ لديْكَ خَدَّشَه الظُّلْمُ ، فأخفَى الهوانَ فى نظراتِكْ
مِنْ خلافٍ يكادُ أَهْلُكَ فى أَضْغانِه السُّودِ ، أَنْ يَرَوْا من عِداتِكْ
مِنْ ضَياعٍ للدِّينِ ، حتى كأنَّ الدِّينَ وَهْمٌ يَمُرُّ فِى خَلَجاتِكْ
مِنْ شعُورٍ بِغَـيرِ رَبِّكَ حَتَّى حـينَ تَلْقَاهُ فى غَيَاباتِ ذاتِكْ
مِنْ خُنُوعٍ تنـام فى ذُلِّهِ اللَّذَاتُ نَشْوَى تَشِـيعُ فى رغباتِكْ
مِنْ خُضـوعٍ مُمَلَّقٍ حفَرَتْه طَعَنَاتُ السـنينِ فَوْقَ سِمَاتِكْ ..
كلُّ هذا .. حَصَادُ طاغينَ جاءُوا يَزْرَعُونَ الخرابَ مِنْ غَفَلاتِكْ
وَيَشُـدُّونَ لِلفَنَـاءِ قيُودًا مُثْقَلاتٍ عَلَى خُطا نَهَضَاتِكْ
شَرِقَ الشَّرْقُ مِنْ أَسـاهم عذابًا أَنْتَ تدرى لظاهُ فى عثَرَاتِكْ
عَبَرُوا لجَّةَ البِحـار لُصُوصًا وَعَدَوْا كالذِّئابِ فى فَلَوَاتِكْ
وأقاموا مجازِرًا تَخْجَلُ الدُّنْيَا لِأَهْوالِهـا بِشَـطِّ « قَنَاتِكْ »
اسـتباحُوا الدِّيارَ !! يالَنِدَاءِ الْعَـارِ مستَصْرِخًا إلى مُحْصَنَاتِكْ !
وَأَرَاقُوا الدَّمَ الزَّكِيَّ ! وَمَا سَالَ بغـير الحيـاة مِنْ مُهجاتِكْ !
فَتَكُوا بالنساءِ .. بالشِّيب .. بالأطفالِ .. واسْتَرْخَصُوا حِمَى عَتَباتِكْ !
وَأَباحُوا الـكِلَابَ تَنْهَشُ أَحْشَاءَ الشَّبَابِ الْمُرَاقِ مِن فَلَذَاتِكْ !
وَتَمَـادَوْا .. فهاجَمُوا يافعَ الزَّرْعِ ، وَحُبْلَى بالْقُوتِ مِنْ سُنْبُلاتِكْ !
فَزَّعُوا الآمِنِـينَ فى هَجْعَةِ الدُّورِ . وَشَقُّوا الحياءَ عن حُرُمَاتِكْ !
وَأَعَاضُوا بُيوتَ رَبِّكَ بالأَدْناسِ والرِّجْسَ عَنْ تُقَى صَلَوَاتِكْ !
كلُّ هذا ... وأنتَ فى دَوْرةِ الأَيَّامِ مستَغْشِيًا فى سُـباتِكْ
تُسْلِمُ الليـلَ للنَّهارِ ، وتسعى بشـجون النَّهار فى أمْسِيَاتِكْ

باحثاً .. باحثاً .. عن القوتِ ، والعيش .. وماذا جمعتَ غيرَ فُتاتِك ؟
وَسِنِينٍ تَمُرُّ .. ما أنتَ فيها غيرُ قُوتٍ مُسَخَّرٍ لِغُزَاتِك ..
قُمْ .. تجرَّدْ مِن كلّ شيء سِوَى الإيمانِ بالمَوْت فى سبيل حياتِكْ
وَاسْلُكِ الدَّرْبَ للمنايا العَظيماتِ ! فِنها يَعُبُّ قَلْبُ حُماتِكْ
الفِداءَ ! الفِداءَ ! .. ناداهُم النِّيلُ .. فَخَفُّوا كالطَّيرِ فى شَجراتِكْ
خَوَّضُوا فِى الدّجَى الْمُلَغَّم بالنِّيرانِ ، تُخْفِى الرِّياحَ عَنْ أَسَلَاتِكْ
وَيَدُ اللهِ فى يَدَيْهم سِلاحٌ طَيْفُه لِلْعِدا حُتُوفٌ فَوَاتِكْ
صَدْرُهُمْ زاحِفٌ عَلَى رَعْشَة اللّيلِ ، بطرفٍ لِبَنْتَةِ الموت هاتِكْ
وَخُطاهُمْ كأنَّها عَسَسُ الجِنِّ ، تَرُوعُ الرَّدَى .. إلَى أُمْنياتِكْ
تَنْسِفُ الموتَ ، والحياةَ ! وَتَهْدِيكَ الضَّحَايا تُضِىءُ فى غاشِيَاتِكْ ..

* * *

أَيُّهَا الشعبُ ! إنَّهَا صَرْخَةُ البَعْثِ . فَحَرِّكْ بِهَا رَمِيمَ سِفاتِكْ
وَانْفُخِ الصُّورَ لِلْكِفاحِ .. وَهُزَّ القومَ هَزًّا يُؤَجِّجُ مِنْ عَزَمَاتِكْ
لَنْ تَذُوقَ الحياةَ حُرًّا .. إذا لم تَسْقِها ما تُرِيدُ مِنْ تَضْحِياتِكْ
فَامْضِ لِلْغاصِبِينَ بالنَّار ، والآجالِ .. واضمُمْ لَهُمْ زَئِيرَ حُداتِكْ
وَإِذَا رَفْرَفَتْ نُعُوشُ الضَّحَايا كل يوم ، وَزَغْرَدَتْ ثَاكِلَاتِكْ ؛
وَرَأَيْتَ الشهيدَ يَهْتِفُ لِلْمَوْتِ ، .. وَمَنْعَى صِباهُ مِنْ بُشْرَياتِكْ ؛
فَهِىَ لِلْبَعْثِ صَيْحَةٌ .. وَأَذَانٌ : أَيُّهَا الشعبُ .. تلك أُولَى حياتِكْ ! !

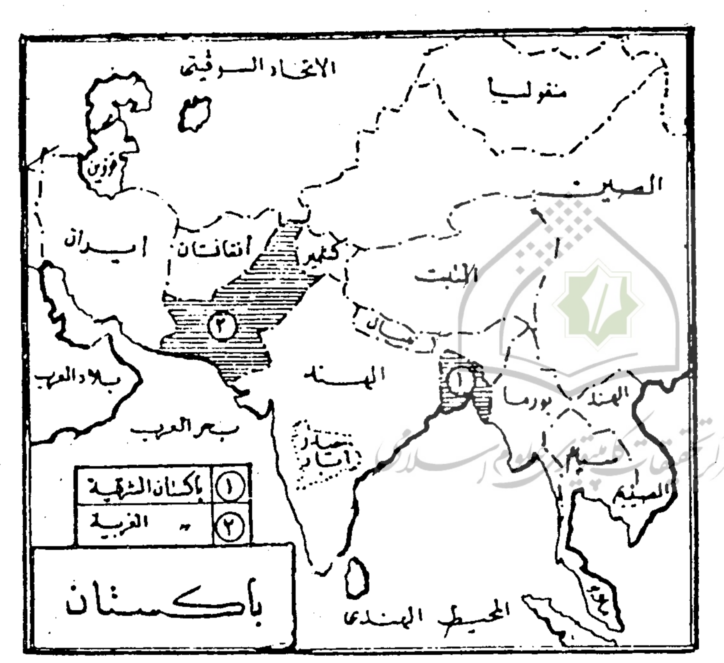
* * *

الباكستان المسلمة

مولدها :

ولدت الباكستان فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٧ وتتكون من المناطق التى كان المسلمون يكوّنون فيها أغلبية . ويشاء الله أن تقع عاصمة الدولة المسلمة الناشئة « كراتشى » فى السند وهى الباب الذى دخل منه مشعل الإسلام الأول يحمله محمد ابن القاسم رضى الله عنه وأرضاه فى أواخر القرن الأول الهجرى .

مساحتها :



تبلغ مساحة الباكستان كلها ٣٦٠٫٧٨٠ ميلا مربعاً منها (٥٣٩٢٠) للباكستان الشرقية و (٣٠٦٨٦٠) للباكستان الغربية . وتفصل الهند بين جناحى الباكستان والمسافة بينهما حوالى (١٠٠٠) ألف ميل . وتتكون الباكستان الشرقية من إقليم (البنغال الشرقية) و (سلهت) أما الباكستان الغربية فتتكون من (بلوتشستان) و (إقليم الحدود) و (السند) و (البنجال) و (بهاولبور) و (ولاية خير بور) و (ولاية الحدود) .

ووضع الباكستان هكذا يعرضها لمتاعب كثيرة ، والتقسيم على هذه الصورة فيه ظلم مبين لها . ولعل الظروف السياسية التى اكتنفت مولد الباكستان هى وحدها التى جعلت المسلمين يقبلون هذا التقسيم ويرونه فرصة سانحة لتجميع الممكن من قواهم حتى يحفظوا عقيدتهم ومواريثهم ومصالحهم من الأخطار الكثيرة التى تتهددها ؛ فإن الإنجليز الذين جاءوا وفرضوا سلطانهم على انقاض الحكم الإسلامى كانوا يرون فى تهيئة أسباب القوة والثروة والعلم لغير المسلمين (الهندوك) الضمان الطبيعى لاستمرار سلطانهم . ثم إن تعصب الهندوك من ناحية أخرى واشتداده يوماً بعد يوم جعل المسلمين يتخوفون كثيراً وتتابعت أحداث ، ومجازر جعلتهم يرهبون المصير حتى أن الأستاذ (تيلاك)

زعيم الهندوك فى المؤتمر الهندى (الكونجرس) صرح بعد مقتل السيد أكبرخان — وكان قاتله شيفاجى الهندوكى — صرح بقوله إن الله لم يجعل للمسلمين شيئا فى مملكة الهندوك !

وصرح كذلك فى مناسبة أخرى بأن مهمة حزب المؤتمر : إنشاء حكم ذاتى تسود به مثل الأغلبية العليا ويخدم السلام العالمى عن طريق تدعيم الإمبراطورية البريطانية ! .

سكانها

يبلغ عدد سكان الباكستان الآن حوالى (٨٢) مليونا منهم (١٢) مليون هندوكى ! ومن بينهم حوالى (٩) ملايين مهاجر تركوا كل شىء فى بلدانهم بالهند فارين إلى أقرب مكان يلمهم من الباكستان . ولا تزال حركة الهجرة من الهند وكشمير مستمرة . ويعتبر نجاح حكومة الباكستان فى توفير المأوى والمطعم والعمل لهذا العدد الضخم — بشهادة رجال هيئة الأمم — نجاحا فذاً لا يفسره إلا إيمان الشعب بالله ، وبدولته الجديدة . وهناك وزارة خاصة لشئون اللاجئين .

دستورها

قدم المغفور له لياقت على خان فى (٧ مارس سنة ١٩٤٩) اقتراحه التاريخى بأن يكون الكتاب والسنة أساس دستور الباكستان الجديد . وقد وافقت الجمعية التأسيسية عليه بالإجماع . وانقسم المجلس إلى لجان لكتابة الدستور ولم يعلن شىء منه حتى الآن ولايزال العالم الإسلامى ينتظر بلهفة النتيجة العملية لاقتراح السيد (لياقت) وهو امتحان عسير نرجو أن تكون الباكستان فيه عند حسن الظن بها .

التعليم

فى الباكستان نهضة تعليمية طيبة ، وقد استطاعت فى أربع سنوات أن تنشىء خمس جامعات كبيرة كاملة الدرجات العلمية فى لاهور ، وداكا ، وبيشاور ، والسند . وكراتشى ويبلغ عدد المدارس الثانوية ٦٤٨٦ تضم مليونى طالب وطالبة والمدارس الابتدائية ٤٠٢٩٥ بها حوالى ٣ مليون .

اللغة : تتكلم مقاطعات الباكستان بلغات محلية مختلفة، ولكن (الأردية) تعتبر لغة عامة بينها . ويتقن المثقفون الإنجليزية ، وهناك اتجاه شعبى قوى إلى اللغة العربية وهى تدرس فى الجامعات وتلقى بها خطبة الجمعة ثم تترجم . وتؤدى العبادات بها . وأنشئت حديثا فى كراتشى كلية اللغة العربية بإشراف الجمعية العربية الثقافية ، وفيها مدرسون من الازهر الشريف ومن سوريا .

الزراعة والصناعة والتجارة : يزرع بها القمح والأرز والشعير والشاى . وأهم حاصلاتها القطن والجوت وتنتج من الجوت ثلاثة أرباع محصول العالم . ويعتبر نظام الرى فى الباكستان من أعظم وأكبر نظم الرى فى العالم . واتجاه الباكستان حكومة وشعبا إلى الصناعة واضح قوى وفيها الآن صناعات ناجحة للسكر والمصابيح الكهربائية والعقاقير والورق والأدوات الرياضية والأفلام والتعدين ، وهى تنشىء الآن محطات للقوى الكهربائية . وأهم ما أتمته مصنع الأسلحة والذخيرة الكبير الذى ينتظر أن يكون من أقوى المصانع العالمية . وميزان الباكستان التجارى فى مصلحتها وهو دائم التحسن سيما بعد خفض الاسترلينى وثبات العملة الباكستانية فقد زادت الصادرات من خمسة ملايين جنيه فى نوفمبر ١٩٤٩ إلى حوالى ٢٧ مليون جنيه فى مارس سنة ١٩٥٠ .

نظام الحكم : الحاكم العام هو رئيس الدولة ولكل مقاطعة مجلس وزراء وبرلمان ويشرف على المقاطعات جميعا مجلس وزراء مسئول أمام مجلس نيابى من سائر المقاطعات . والسياسة الخارجية والعسكرية موحدة .

الأحزاب والجماعات : الحزب القوى هو حزب الرابطة الاسلامية الذى يرأسه الآن السيد ناظم الدين رئيس الوزراء وهو حزب الحكومة .

وفى الباكستان جماعتان إسلاميتان (جماعة التبليغ) ومهمتها تفقيه الناس فى شئون العقيدة . (والجماعة الإسلامية) ويرأسها الأستاذ أبو الأعلى المودودى ، وهى تطالب بسرعة الأخذ بالإسلام ، ولها فروع وتنظيم فى البلاد ، وتأخذ عليها الحكومة الشدة والتطرف .

والمذهب السائد هو المذهب الحنفى ، ويوجد قليل من الشوافع .

الجيش : جيش الباكستان من أقوى جيوش آسيا فى تنظيمه وسلاحه ، وسلاحها الجوى وأسطولها كبيران . وتنفق الباكستان أكثر من ثلث الميزانية على قواتها المسلحة .

كشمير : كشمير للباكستان كالسودان لمصر ، وهى لذلك تحتل مكانا رئيسيا فى سياسة الباكستان واهتمامها . وقد تحدثنا عنها فى العدد الأول من (المسلمون) .

فى أفق العالم الإسلامى

وادى النيل :

اشتدت حركة المقاومة الشعبية التى يقوم بها الفدائيون فى ضفة القناة ، وتميزت بالتنظيم الدقيق ، على أثر وصول الكتائب الجامعية إلى ميدان المعركة ، وارتفعت تبعاً لذلك نسبة الخسائر الإنجليزية فى الرجال والمهمات على السواء . وما تزال الكتائب الجامعية تتزايد ، وقد سقط فى ميدان الشرف من كتبت لهم منهم الشهادة ، وفازوا بجوار الله وجنة الرضوان .

وقد بلغت الهمجية الإنجليزية فى مقاومة الحركات الفدائية حداً لم يبلغه كل ما نشر عن فظائع النازى فى الحرب الماضية . من ذلك إطلاق المدافع الضخمة على القرى الآمنة بدون تمييز ، وإلقاء القنابل الحارقة على بيوت القرويين ومزارعهم . ثم وصلت الهمجية إلى ذروتها فى نبش قبور الموتى وانتهاك حرمات بيوت الله واستخدام مآذنها قلاعاً يصوبون منها نيرانهم على الناس ، وصلب الأسرى وقتلهم بعد تسليط الكلاب المتوحشة عليهم ، تنهش أجسامهم وتأكل منها قطعاً كاملة وهم أحياء . ثم التمثيل بجثثهم بعد الموت فى سعار مجنون ، تشمئز منه الإنسانية ، وتقشعر لشناعته البشرية . . وقد ضاعفت هذه الوحشية من حماسة الفدائيين ونشطوا للانتقام من هذه الوحوش البشرية التى لا تعرف قانوناً ولا أخلاقاً ولا ديناً ولا إنسانية .

أما فى الميدان السياسى والدبلوماسى ، فقد نشر خبر وساطة الملك عبد العزيز آل سعود بين مصر وانجلترا ، ورد الحكومة المصرية عليه . وقد سافر سعادة الدكتور عبد الوهاب عزام بك سفير مصر فى الباكستان إلى الرياض لتسليم الرد المصرى ، وقيل : إنه يتضمن أن الأساس الوحيد الذى تقبله مصر هو الجلاء والاستفتاء فى السودان .

وفى الجانب الآخر كانت خطبة مستر تشرشل فى الكونجرس الأمريكى ، وطلبه أن ترسل فرنسا وأمريكا وتركيا قوات — ولو رمزية — إلى ضفة القنال لمعاونة القوات البريطانية . وقد قوبلت هذه الخطبة بالاستنكار فى أمريكا ، والبرود فى فرنسا ، والاعتذار فى تركيا . كما قوبلت بالدهشة فى الدوائر الإنجليزية نفسها . وكان لهذه الخيبة وقع سيء على مركز الإنجليز المعتدين .

بين المسلمين والأقباط :

أسفنا أشد الأسف لحادث الاعتداء الأليم على كنيسة السويس وحمدنا الله كثيراً أن تدورك الأمر بحكمة سدت منافذ الفتنة وأبقت شمل البلد مجتمعاً إزاء المستعمر الغاصب العنيد . ولكننا رغم مرارة الحادث وقسوته لا نرى سبباً يؤدى إلى انزعاج الأقباط وفزعهم ، فإن الكنائس فى سائر بلاد مصر والعالم الإسلامى محترمة لا تنتهك لها حرمة . ولحادث السويس — وليس هذا تبريراً له بحال — ظرفه الخاص فقد أحدث اتهام القبطيين بالجاسوسية فى هذا الجو الملتهب — فى السويس — ثورة طاش فيها حلم الحلماء .

و (المسلمون) تنتهز هذه الفرصة لتقول كلمة صريحة فى الأسلوب الذى يضمن بقاء شمل البلاد مجتمعاً دائماً :

لقد دأب ساسة مصر فى سبيل جمع الشمل على تقديم المعنى الوطنى على ما سواه وبلغوا فى ذلك أن قالوا للمسلم والقبطى : وطنك أولا ودينك بعد ذلك ؛ وظنوا أنهم بذلك يحققون المراد . ونحن نعتقد أنها محاولة فاشلة وغير كريمة وخطرة على المسلم والمسيحى على السواء ، فإن المسلم يقرأ فى قرآنه مثل قول الله : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » — وإن القبطى يقرأ فى الإنجيل مثلا : « لا تحب العالم لا تحب شيئاً فى العالم . أبغض كل شىء . لا تحب إلا الرب » . فكيف يجوز أن يقول مسلم أو قبطي : وطنى أولا ودينى بعد ذلك . إنه إما أن يكون كاذبا مع ربه فلن يصدق معك أبداً وإما كاذب عليك ولا تستقيم وحدة أساسها الكذب . إن أثر الدين فى أنفس الناس أعمق مما يظن الساسة اللهم إلا أن المقصود أن يجرد الدين من سلطانه وهذا — فضلا عن أنه وهم — فهو جناية رهيبة على الضمير الإنسانى الذى لا يمسكه إلا وازع الدين ولا نظن أنفسنا بحاجة إلى التدليل الطويل على أن التاريخ الإنسانى لم يشهد مجتمعاً خلواً لا دين له .

فكيف السبيل إذن إلى اجتماع شمل الناس ؟

السبيل الذى لا سبيل غيره هو أن تنشد الصلة الحقيقية بين المسلمين والأقباط باسم الدين لا على حسابه فنقول للمسلم اقرأ قرآنك واذكر فيه مثل قول الله : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . ونقول للقبطى اقرأ إنجيلك وتقرب إلى ربك باتباع ما فيه من تعاليم المسرة والمحبة والسلام . إننا إن فعلنا ذلك أقمنا الدين حارساً على اجتماع الشمل المنشود وحللنا عقدة النفاق بين المسلم والقبطى ولم يعد أحدهما يتكلف ليخفى ما بينه وبين الله الذى خلقه وخلق وطنه والدنيا جميعاً .

إن محاولة جمع الشمل على هذا الأساس تجد من الإسلام كل عون وسند فالمسلم مطالب أن يؤمن بكل نبى سبق ، بل إن دينه ليأمره أن يتتلمذ على عيسى عليه السلام « كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله » ، ويفرض عليه — فى نور هذا الإيمان السافر — العدل بين الناس جميعاً وتفويض الأمر فيما وراء ذلك لله « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

تونس :

توترت الأحوال فى تونس وأذاعت وكالات الأنباء أخباراً اهتم لها المسلمون فى كل مكان وكان ذلك إثر ما نشر عن ضغط السلطات الفرنسية على باى تونس لإقالة الوزارة بعد سفر عضوين منها إلى باريس لإثارة قضية تونس فى هيئة الأمم ، واصطدم المسلمون بالبوليس الفرنسى فى أماكن متفرقة سقط فيها كثير من القتلى والجرحى .

إن هذه الحوادث فى تونس — وهى شبيهة أخواتها فى سائر أقطار الإسلام التى لا تزال ترزح تحت كابوس الاستعمار — وإن كانت تقض مضاجعنا ضحاياها العزيزة إلا أننا نقرأ فيها نبض الروح الإسلامى الذى استعصت به الفريسة تحت ضربات التاريخ الطويل الأليم . فإن إخواننا التونسيين لم ينعموا براحة منذ فرضت عليهم معاهدة ١٢ مايو سنة ١٨٨١ .

ويأتي الذى نسمعه اليوم من أخبار تونس حلقة جديدة فى قصة دامية لسنا ندرى متى تنتهى إلا أننا نؤمن على كل حال أن النصر للحق إذا أدى أصحابه ضريبته وصبروا ، « والله مع الصابرين » .

فلسطين :

توالت اعتداءات اليهود فى جهة قلقيلية والقدس وبيت جالا وسقط فيها قتلى من العرب وجرحى ، ولا تزال حكوماتنا الجليلة ترد على ذلك بالمذكرات والتصريحات .

إيران :

تكاد تخرج إيران من معركة الانتخابات مجتمعة الشمل بإذن الله بالرغم من الحوادث الأليمة فى بعض الدوائر الانتخابية ، وقد خطت الحكومة الإيرانية خطوة جريئة بإغلاق القنصليات البريطانية فى إيران ورفضها السفير البريطانى الجديد واشتراطها ألا يكون عالماً باللغة الفارسية وألا يكون قد اشتغل من قبل فى إيران أو فى أية مستعمرة بريطانية .

أخبار متفرقة

● كان فى طليعة شهداء القنال هذا الشهر الأخوة الأعزاء : أحمد المنيسى وعمر شاهين وعادل غانم من شباب الجامعة ... سلام عليكم أيها الأحبة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ... وإلى لقاء عزيز فى جنة الخلد .

● صدر بلاغ رسمى سعودى يكذب ما نشرته الصحف المصرية من أن المملكة السعودية قد استدعت السنهورى باشا لوضع دستور لها ويؤكد البلاغ أن دستور المملكة العربية هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنها لا تحيد عن ذلك أبداً .

● كتب فريق من إخواننا الفلسطينيين فى قطاع غزة إلى الحكومة يعلمونها أن هناك عشرة آلاف متطوع مدرب مستعدين لمشاركة إخوانهم فى القنال فى قتال الإنجليز .

و « المسلمون » تحيي فيهم هذه الروح العالية .

● نفذ حكم الإعدام فى الأسبوع الماضى — علنا — فى يهوديين ثبت إدانتهما فى إلقاء القنابل على بعض الدور العراقية وتجرى المحاكمات الآن على نطاق واسع ضد اليهود .

● أعلن جميع نزلاء سجون الجزائر الإضراب عن الطعام احتجاجا على المعاملات الوحشية التى يعاملون بها .

● اعتقلت السلطات الفرنسية فى المغرب رجال الدين لإنهم حيوا قطراً إسلامياً شقيقاً ودعوا لأمتهم برفع كابوس الاستعمار عنها فى حين يقف وزير خارجية فرنسا يقول فى هيئة الأمم : « وإذا كان هناك من مسألة يجب أن تعنى بها هيئة الأمم فهى أولا وقبل كل شىء قضايا حرية الشعوب واستقلالها » وهكذا تعمل فرنسا بقولها !

● دعا بعض علماء الباكستان إلى مؤتمر لعلماء العالم الإسلامى ينعقد فى كراتشى فى منتصف فبراير .

● ثار المسلمون فى سنغافورة وقاموا بمظاهرات صاخبة لعرض أحد دور السينما فيلماً عن سيدنا « داود وملكة سبأ » لتصوير الفيلم سيدنا دواد قاتلا وزانياً وقد أصدر وزير المستعمرات هناك أمراً بمنع عرض الفيلم .